مشاهدة من واقع النفق

مصطفى عبد الباقي

رواية



مشاهـــدة مـــن واقـــع النفـــق

رواية

مصطفى عبـــد الباقـــي



اسم الكتاب:
مشاهدة من واقع النفق (رواية)
اسم المؤلف: مصطفى عبد الباقي
الناشر:
بيت الياسمين للنشر والتوزيع

رقم الإيداع:
٢٣٩٢٩ /٢٠١٤
الترقيم الدولى:
٩٧٨-٩٧٧-٦٤٠٢-٧١-٣

الطبعة الأولى ٢٠١٥.

الإشراف العام:
زياد إبراهيم

المراسلات:
الدور الثانى شقة ٣
٥٣ ش خيرت - ميدان لاظوغلى عابدين
جمهورية مصر العربية

البريد الالكترونى:
Baitelyasmin@yahoo.com
ziadibrahim_2008@yahoo.com

تليفون:-
(+202) 27949885
(+202).111.0 94 62 5

إهداء

إلى روح والديَّ

رحمكما الله وأسكنكما فسيح جناته

إلى أقاربي

معزة خاصة ومحبة تدوم

إلى ورشة الزيتون الأدبية

شكر واجب وعرفان للجميل



(١)
(ممدوح)

لماذا تجذبه تلك الموسيقى ولماذا كل هذا الوهن تجاهها حتى أنه لا يقدر على مقاومة عزفها الشجي، فما من مرة عُزف لحنها وضج صوتها إلا وأتى متلهفًا راجيًا مني مرافقته للانغماس في حلقاتها.

استرقت النظر إليه وهو يحد الخطى، يشع في عينيه بريق فتان للنظر. أحس هو ذلك فراح يزيل غشاوة دهشتي ليخبرني بأن الحاج أبو طه دعاه لمشاركته في فرح ابنه محروس. أبدى ممدوح تعجبه فكيف لا أفهمه مع مرور تلك العِشرة الطويلة ونعومة أظفارنا تشهد بأن عودينا ترعرعا يقوي بعضه البعض.

حبي لممدوح أثار دهشة أقاربي، فهل ضاقت الدنيا أم جفت خصوبة النساء حتى أني لا أجد أحدا سواه لأصادقه؟!، وهل يعقل أن أصاحب شخصا مهنة والده نزح المراحيض وتقليم أظلاف الحمير وينتمي لقبيلة الحلب التي عادة لا تحظى باحترام الناس

فمعظـم المنتسـبين لهـا يعملـون بأعـمال وضيعـة مثـل جـس البهائـم وتزيـين رءوس النـاس وبيـع حـصر العدبـان وشـيلان الكاشـمير.

أكـثر شيء كان يحـز في نفـس ممـدوح معايـرة أنـداده لـه في الدراسـة لدنـاءة نسـبه. فـكل واحـد منهـم يفتخـر بعلـو أصلـه ورفعـة نسـبه حتـى أنهـم كانـوا يقولـون لـه عـد أجـدادك، فبالتأكيـد سـتتوقف عنـد الجـد الرابـع بخلافنـا نحـن نعـد لـك إلى مـا يقـارب الجـد الخامـس عـشر ونحـصي أفـراد عائلتنـا التـي تتجـاوز الآلاف.

كنـت أقـول لـه الـق كل هـذه التفاهـات وراء ظهـرك، فاللـه خلـق النـاس أسـوياء كأسـنان المشـط، ولا شيء يزكيهـم عـن بعضهـم سـوى تقواهـم. ضـاق صـدر ممـدوح مـن جـراء ذلـك؛ فانـزوى بنفسـه عنهـم بيـد أنهـم نبـذوه وانطـووا عنـه و الـشيء الـذي كان يغضبـه هـو أن الواقـع خـلاف ذلـك والحقيقـة نقيـض مـا يعتقدونـه وأنـه لـو صـح مـا يقولـون مـا كان لـه أن يغضـب أبـدًا منهـم. فجـده الرابـع -على حسـب مـا رواه لـه والـده- كان مـن أعيـان مركـز البـداري بمديريـة أسـيوط ينتسـب لعائلـة تمتلـك مئـات الأفدنـة، في لحظـة تهـور انفعـل فقتـل شـخصا شـتمه فخـاف أن يؤخـذ فيـه الثـأر. كان في ذلـك الحـين مـوكلا مـن قبـل والـده العمـدة بـالإشراف عـلى عـمال التراحيـل القادمـين مـن العـركي والعاملـين في جنـي محصـول القطـن في أراضيهـم، فـكان دائمًـا مـا يجلـس بجوارهـم يأنـس بمودتهـم ويصغـي لحكاويهـم وأغانيهـم ونكاتهـم، فآثـر أن يختبـئ بينهـم ويحتمـي بهـم لا سـيما أنهـم اكتنفـوه بفيـض مـن المشـاعر فاطمأنـت روحـه لهـم.

آثـر جـد ممـدوح بـأن ينـزح مـع عـمال العـركي، بيـد أنهـا عـلى أطـراف الصحـراء ومخفيـة عـن النظـر حتـى إن الـذي كان يقـدم إليهـا مـن فرشـوط، عليـه أن يسـلك مدقًـا زراعيًـا تكتنفـه عيـدان القصـب، والـذرة الشـامية الطويلـة تداريـه عـن أعـين النـاس، أحاطـه أهـل العـركى بعنايتهـم وأكرمـوه بضيافتهـم. كان يعتقـد بـأن الأيـام كفيلـة بـأن تهـدئ الأنفـس المسـتعرة والقلـوب المتوقـدة تجاهـه، فكلـما كان يتحـرى عـن أهلـه في البـداري كان يسـمع مـا لا يـسر قلبـه بـأن أهـل القتيـل لم يرضـوا بالصلـح ولا بالديـة التـي عرضوهـا عليهـم واقتصـوا لقتيلهـم مـن أخيـه الأكـبر الـذي كان يجهـزه ويعـده والـده لـيرث العموديـة، إخوتـه وأقاربـه قالـوا بأنهـم لـن يرضـوا لأخيهـم بأقـل مـن عـشرة أفـراد قصاصًـا لـه، ففاضـت بحـور مـن الدمـاء مـن جـراء فعلته.

أحـس جـده بـالآسى فهـو ورط ناسـه في معـارك كان بالقليـل مـن التريـث والهـدوء يمكـن تفاديهـا. صـب إخوتـه غضبهـم عليـه حتـى إن أحـد إخوتـه رشـا موظـف الصحـة؛ فنـزع صفحتـه مـن دفـتر المواليـد حتـى لا يتسـنى لـه اسـتخراج شـهادة ميـلاد، بهـا يسـتخرج قيـدا عائليـا وبطاقـة شـخصية مـن خلالهما يطالـب بحقه فى مـيراث والـده. وبالفعل تـم تجريـده مـن أي شيء يخـص والـده، فغـدا في حكـم إخوتـه خائنـا، فعـل فعلتـه وهـرب وتركهـم هـم في تعاسـتهم.

لم يجـد جـد ممـدوح بـدًا مـن أن ينغمـس مـع أهـل العركى، فسـبحان اللـه انقلـب الحـال فأضحـى هـو الـذي يشـتغل في أراضيهـم ويلـم ثمـار محاصيلهم.

أحب روضة ابنة أخت نفيسة الحلبية فتزوجها. تكفلت نفيسة بمساعدة أهل العركى بتسنينه وعمل شهادة ميلاد تثبت بأنها أمه وزوجها زناتي ابوه والذي أسماه فتح الله. أنجب من روضة شاكر. وشاكر أنجب وزيري ووزيري أب لضاحي وضاحي والد لممدوح. ضاحي لقن ممدوح اسم جده الحقيقي خيرت وأبوه العمدة الأتربي وشهادة ميلاده منزوعة من سجلات المواليد وموطن ميلاده مركز البداري بمحافظة أسيوط.

كان ممدوح يختلي بنفسه ويقارن بين اسمه الحقيقي «ممدوح ضاحي وزيري شاكر خيرت الأتربي» واسمه الورقي بدفاتر الحكومة المصرية «ممدوح ضاحي وزيري شاكر فتح الله زناتي» وكنيته الحلبي، كان يقول هامساً: ما الفرق بين الإتربي والحلبي، فالاثنان سوف يأتيان الله فرادى مصطحبين أعمالهما لا أنسابهما ولا أحسابهما، وها هو يوقظني من شرودي قائلاً بتعجب:-

- ما بك؟
- لا شيء.
- بما تفكر؟
- أفكر في حالنا.

جلسنا على دكة من خشب السنط في صف متأخر عن شاعر الربابة إلا أن صوت سماعات الهيدفون يكاد يخترق آذاننا. الحلقة مكتظة عن آخرها فالشاعر ذائع الصيت والشيخ «أبو طه» أفضاله يشهد لها الجميع، أمسك الشاعر ربابته ومن خلفه أفراد

فرقتـه بالـدف والمزمـار والربابـة وبـدأ بـسرد سـيرة بنـي هـلال.

زهالي زماني وبلغت المرام

أنا الحل والرباط بأيدي

أنا اللي حاخده الفخر والاحترام

وكل «بني هلال» يبقوا عبيدي.

قال له «غانم» روح يا ولدي.

لا يلطم السن راسك.

لا حتنفع في ديك ولا دي

يا ضناي اعرف خلاصك.

وفي زمـرة الإنصـات لفـت انتباهـي سـدادة ميـاه غازيـة ملقـاة بجـوار ممـدوح، التفـت خلفـي فرأيـت سـعد الشـمندي وأصدقـاءه يلهـون ويلقـون أغطيـة الزجاجـات نحـو ممـدوح. قمـت مـن مـكاني وكلمتهـم عـن كثـب وعاتبتهـم عـلى ذلـك، لم يعـيروا لكلامـي أي اهتـمام بـل تمـادوا بالنـكات السـخيفة والقفشـات السـمجة تجـاه ممـدوح، لم أتمالـك نفـسي حتـى التقطـت عصـا مـن جـواري وضربتـه عـلى رأسـه حتـى انفتـح منـه مـا يشـبه نافـورة مـن الدمـاء غـيرت سـمرة وجهـه إلى احمـرار داكـن.

(٢)

إسماعيل المسعد بضم حرف الميم

سأل موظف الصحة جدي:-

- بما ستكتب ابنك يا حاج عبد الحق؟

أجابه جدي على فوره

- إسماعيل، على اسم والدي.

تعجب موظف الصحة من ذلك، فأخوه الكبير سمى ابنه البكري إسماعيل وأخاه الأوسط أسمى أيضًا ابنه البكري إسماعيل بخلاف أبناء عمومته، فمنهم من سمى ابنه إسماعيل ومنهم من لم يفعل. اقترح عليه موظف الصحة بأن يكتبه إسماعيل المسعد بضم حرف الميم، اسم مركب يطلي السعد على اسم والدي، لم يمانع جدي ذلك بل استحسن الأمر فكان اسم والدي إسماعيل المسعد، سبب لي هذا الاسم الكثير من اللبس؛ بسبب تركيبه من جهة والتهكم لفكاهته من جانب أندادي في الدراسة من جهة أخرى.

ظروف نشأة والدي لم تختلف، كثيرًا عن أقرانه في البلدة من

بعد المدرسة الكائنة بنجع حمادي والطرق الوعرة التي كان يسلكها ممتطياً حماراً يئن من بعد المسافة وثقل والدي، ولمبة الجاز التي كانت تنير له صفحات الكتب ولوح الصفيح ودواية الحبر وقلم البوص التي كان يتأبطها في ذهابه وإيابه إلى كتاب الشيخ عبد الله.

تزعم والدي الحركة الطلابية إبان فترة دراسته بالجامعة والتحق بمنظمة الشباب وهي إحدى تنظيمات الاتحاد الاشتراكي فلا عجب من ذلك فجدي كان رئيسًا للجنة الاتحاد الاشتراكي بالعركى، من صغره وهو يقرأ المنشورات والنشرات والمطبوعات التي كان يصدرها الاتحاد الاشتراكي العربي، كثيرًا ما كان جدي يأذن لأبي بالجلوس بجواره حينما يأتي الضيوف من الأعضاء على مستوى المركز والمحافظة، تشرب والدي أفكار الاتحاد الاشتراكي المبنية على الولاء للفكر اليساري الماركسي.

انفعل مع أغاني عبد الحليم حافظ الوطنية حتى أنه كان يقفل باب حجرته ويغني مع عبد الحليم (شعب زاحف في خطوته تولع شرار، شعب كافح واتكتب له الانتصار).

ومع الوقت انضم والدي للتنظيم الطليعي للحزب العربي الاشتراكي وهذا التنظيم لا ينضم إليه أحد إلا بعد أن ينال تزكية الأمانة العامة للحزب وبعد اختبارات يتأكدون من خلالها من ولائه التام للحزب.

اشترى جدي خصيصًا -احتفالاً منه بذلك- بزة فاخرة وطربوشا

أنيقـا ونعـلا أسـود لامعـا، كان جـدي يسـترق النظـر لوالـدي وهـو يصفـف خصـلات شـعره الناعـم وينظـف ذرات الـتراب العالقـة عـلى بمنكبيـه أمـام مـرآة الـدولاب، كانـت تكسـو وجـه جـدي فرحـة عارمـة تزهـو في ملامحـه.

تأثـر والـدي تأثـرًا بالغًـا بالشـعارات الطنانـة والخطـب الرنانـة والوعـود البراقـة، حلـم مع عبـد النـاصر وأفـرط في حلمـه حتـى أنـه لم يصـدق النـاس وهـي تخـبره بهزيمـة الجيـش في يونيـو٦٧، فليـس مـن المعقـول بـأن كل مـا تعلـق بـه كان أوهامـاً راحـت أدراج الريـاح.

حـزن والـدي لمـوت عبـد النـاصر وتعلـق بالنعـش الرمـزي الـذي طافـوا بـه أرجـاء البلـدة وأجهـش بالبـكاء الحـارق حزنًـا عليـه.

تحـت ضغـط مـن جـدي استسـلم أبي وتـزوج ابنـة عمـه حسـين وبعـد عـام كنـت أفتـح عينـي باكيًـا مسـتقبلاً الحيـاة، لم يمـر عـلى مولـدي سـوى ثلاثـة أعـوام وفي لحظـة غضـب رمـى عـلى والـدتي يمـين الطـلاق وسـط دهشـة أقاربـه حتـى أن جـدي قـال لـه بأنـه لـن يكلمـه وسـيخاصمه العمـر كلـه إن لم يـرد أمـي إلى عصمتـه. أبى والـدي ذلـك واسـتخرج جـواز سـفر وسـافر إلى فرنسـا مـع زميـل لـه مـن بهجـورة، بعـد عـام مـن سـفره أرسـل خطابـاً قـال فيـه إنـه بخـير ويعمـل بمـزارع النبيـذ بمارسـيليا، ثـم انقطعـت أخبـاره وأتى زميلـه وذهـب إليـه جـدي وعمـي عمـر وقابلهـما بـإدارة التمويـن ببهجـورة، قـال لهـم بأنـه تركـه بباريـس فـور وصولـه فرنسـا ولا يعـرف شـيئاً عنـه، طالـت فـترة انتظـاره وانقطعـت أخبـاره حتـى أنهـم قالـوا إن البـلاد الغربيـة

بلعتـه ولم لا؟ أفليسـت هـي بـلاد الجـن والملائكـة؟ واسترسـل البعـض في خيالاتـه ربمـا يكـون قـد تـزوج فرنسـية وضبطهـا مـع صديقهـا القديـم وأخذتـه عصبيتـه الصعيديـة؛ فقتلـه وهـو الآن خلـف القضبـان ومحرج مـن معرفـة أخبـاره. حفيـت أرجـل جـدي وعمـي عمـر مـن مناشـدة المسـئولين وطـرق أبـواب السـفارات والقناصـل وكتابـة الإعلانـات بالصحـف، حتـى أنهـما ذهبـا إلى الإذاعـة لمقابلـة الإذاعيـة اللامعـة آمـال فهمـي في برنامـج عـلى الناصيـة وكان للبرنامـج تقليـد بـأن يختـار الضيـف أغنيـة يهديهـا للمسـتمعين في نهايـة كل فقـرة، تـرك جـدي لهـا حريـة الاختيـار فاختـارت لـه أغنيـة عـلي الحجـار (عنـوان بيتنـا زي مـا كان، بـس انـت نسـيت العنـوان).

ولكـم يتـوق جـدي لرؤيـة ابنـه إسـماعيل المسـعد قبـل موتـه. ومـرت أيـام وأيـام وسـنون وسـنون وبقـي هاجـس ينغـص عـلى جـدي حياتـه بأنـه في يـوم مـن الأيـام سـيأتي والـدي حـافي القدمـين، يـأتي مرحـلاً وفي معصـم يـده آثـار القيـد الحديـدي، يـأتي يـأتي، المهـم أن يـأتي يـأتي.

(٣)

بيت جدي

تزوجت والدتي من رجل يكبرها بأربعين عاماً حافظاً لكتاب الله ماتت زوجته ولم ينجب منها أبناء، مكثت معهما زهاء الأربعة أعوام، عاملني فيها الشيخ صالح معاملة طيبة. نقش في داخلي ترتيل القرآن وحب الصلاة وكره المعاصي، كنت دائماً ما أتبعه الخطى في إيابه وذهابه إلى الجامع ماسكاً طرف جلبابه حتى أن الصبية في الشارع كانوا ينادونني «أيمن أبو صالح».

انزعج جدي حين نما إلى علمه ذلك وطلب من عمتي تونس بأن تنهي إقامتي ببيت الشيخ صالح وأبقى معهم ببيت جدي، قال لها بأن الابن الذي يرى شخصا بخلاف والده يبيت مع أمه يغدو إنسانا مخنثا غير غيور على عرضه.

أحضرني جدي وأوقفني أمامه وراح يقول وأنا أكرر خلفه «أيمن أبو إسماعيل، أيمن أبو إسماعيل» وفي مرة تلعثم لساني ونسيت وقلت «أيمن أبو صالح» وما كان منه إلا أن بطش بكف يده الذي يشبه خف الجمل وجهي قائلاً «أيمن أبو إسماعيل».

منذ ذلك الحين مكثت ببيت جدي عبد الحق الذي حكى لي جدي حكايته بأن جده إبراهيم أبو عليو كان يقيم بعزبة المساعيد على أطراف فرشوط والتي كانت عرضة لسطو اللصوص والهجامين، فما من عام يمر إلا ويغيرون عليهم يسطون على بهائمهم وغلالهم وأراضيهم، ارتحل إلى صحراء العركي حيث بركت جماله المحملة بالحصى، وبنى له بيتا وما لبث أن قدم ابن أخيه يوسف وابن أخته دياب وبنوا لهم بيوتاً بجوار بيت جدي الذي أضحى نواة لقرية العركي.

بيت جدي مساحته حوالي نصف فدان تتصدره مندرة يستقبل فيها الضيوف كانوا يقولون عنها الديوان. في خلفيتها حجرات المبيت ويعقبها ممر ضيق تنفتح عليه غرف النساء التي كانت تداريها حوائط صغيرة تخفيها عن نظرات الرجال إلا أن النساء كن يفتحن فتحات من خلالها يتلصصن على للرجال. حوائط البيت عرضها ما يقارب المتر والنصف وأساسها من حجارة الجير التي يعلوها بمتر ونصف الطوب الأحمر لحمايتها من الرطوبة ورشح المياه الجوفية، سقف البيت من جريد النخيل المفتول بليف النخيل والمصبوب عليه الطين الممزوج بالتبن.

صمم البيت بطريقة هندسية فريدة ما إن تدخله تكاد تتوه من فرط إبداع تصميمه حتى أنه كانت هناك غرفة مخفية عن الأعين يخزن بها ما تم حصاده من محاصيل القمح والذرة والسمسم، كانوا يقولون عنها الحاصل أي حاصل ما تم جمعه

آخر العام، باب الغرفة عبارة عن فتحة صغيرة مبلطة بالطين تفتح حينما نستخرج ما نحتاجه لطحين ثم تسد مرة ثانية.

في الصيف كانت تشع من حوائط البيت العريضة رطوبة باردة تنعش جسم الإنسان وفي الشتاء منقد جدي الذي كنا نكتنفه -لنستمع لحكاويه- كفيل للتدفئة والشعور بالحرارة.

أيام قضيتها بين جنبات بيت جدي، كنت أبيت مع عمتي تونس التي توفى زوجها غندور وآثر جدي بأن تبقى معه والتي تكفلت بتربيتي مع ابنها عصران، كانت عمتي تونس بمثابة أم لي تغسل ملابسي وتعتني بنظافتي وتوقظني للذهاب للمدرسة، لا أنسى قط ضحكتها المبهجة للحياة إثر ممازحة جدي لها وهي تقدم له الطعام.

نزلنا تونس جنة البساتين
ناس أجلاء استقبلونا
جابوا لنا العنب والخوخ والتين
ضيوف أفاضل أكرمونا

كان يأتي ممدوح كي نستذكر دروسنا ثم يمرح مخفياً كتاب العلوم للصف الثاني الابتدائي خلف ظهره قائلاً: بيتنا أم بيتكم؟ فإن قلت بيتنا يخرج الكتاب على صفحة بها زواحف وثعابين. وإن قلت بيتكم يخرج الكتاب على صفحة بها حديقة مكتظة بالأشجار الباسقة والزهور الناضرة، ما يلبث أن يضحك ويقهقه مستلقياً على ظهره.

بعد ما أنهى عمي عمر إعارته إلى السعودية طلب من جدي هدم البيت وتشييد بيت جديد يلائم متطلبات زماننا هذا.

أبى جدي ذلك وقال له إنه ورث البيت عن والده وأنه سيموت فيه، ففيه عطر رائحة والده وجده وعبق أصالة ماضيهم، لم يجد جدي بداً في إلحاح عمي الشديد بيد أن الشروخ بدأت تظهر على حوائطه بخلاف انخفاض البيت بمتر ونصف عن الشارع الذي تم تعليته بالرمل والزلط والأسفلت.

أحضر عمي عمر مهندسا من فرشوط صمم البيت بطريقة حديثة لم تعجب جدي. المندرة التي كان يستقبل فيها ضيوفه استبدلها ببرندة حوائطها من زجاج الفاميه غامق اللون بحيث ترى وأنت بداخلها من في الطريق والآخر لا يراك، هذا الشيء ضايق جدي فهو يأنس بأنفاس الناس ويسعد بسلامهم عليه.

(٤)
(عم عمر)

بعدما أنهى عمي عمر إعارته للسعودية ظهرت عليه أشياء لم تعجب جدي، أمر زوجته باتشاح برقع وارتداء إسدال أحضره خصيصاً من السعودية وأمرها بألا تظهر على أحد سواه وأبيها وأخوها، أطلق لحيته وخفف شاربه وارتدى جلباباً قصيراً أسفل الركبة بقليل تحته بنطلون أبيض وتلفح وشاحا وانضم لجماعة أطلقوا عليهم في البلدة (السنية) فهم أتباع سنة النبي المختار صلى الله عليه وسلم, وراحوا يصححون للناس دينهم وما التبس عليهم من ضلالات وبدع ما أنزل الله بها من سلطان، المسبحة بدعة فالتسبيح بالأيدي أفضل بكثير فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يعقد التسبيح بيده، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يا نساء المؤمنات عليكن بالتهليل، والتسبيح، والتقديس، ولا تغفلن فتنسين الرحمة، واعقدن بالأنامل فإنهن مسئولات مستنطقات)، فهذه الأنامل ستشهد لصاحبها يوم القيامة بهذا التسبيح، وصلاة التراويح التي كان يؤمنا فيها الشيخ

صالح والتي كان يصليها عشرين ركعة بسورة النجم بواقع آية لكل ركعة، هذا يخالف سنة الحبيب المختار التي كان يصليها ثماني ركعات. الاحتفال بالمولد النبوي أمر منهي عنه فلم يؤثر عن الصحابة أو السلف الصالح بأنهم احتفلوا بمولده، ولا أنسى قط عندما عزم جدي على زيارة مولد العارف بالله عبد الرحيم القنائي احتفالاً بالليلة الختامية لمولده والتي كانت توافق ليلة النصف من شعبان، أبى عمي عمر هذا الأمر ونهى جدي عن ذلك. لم يستمع له جدي وأصر على أمره، اعترض عمي عمر سير السيارة واقفاً أمامها فاتحاً ذراعيه على مصراعيها قائلاً بانفعال والعرق يتصبب من وجهه بأن هذا الأمر مرفوض جملة وتفصيلاً. فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا تشد الرحال إلا لثلاث مساجد المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا)، والأمر الذي يقدم عليه جدى ما هو إلا بدعة تسربت إلى المسلمين من النصرانية بعد تحريفها، فقد صح عن عائشة أن أم سلمى ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة، يقال لها ماريا وذكرت ما رأتها فيها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله». وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ألا لا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك».

نـزل جـدي مـن السـيارة محـاولاً تهدئـة عمـي عمـر وذكـره حينـما كان يترجـاه في صغـره لمرافقتـه للمولـد وذكـره بفرحتـه بركـوب المراجيح وشراء الحلـوى والنوجـة التـي يحبهـا.

لم يأبـه عمـي لـكلام جـدي فهـو فى نظـر، آثـم يقـدم عـلى ارتـكاب منكـر وهـو مغـيره حتـى لـو تطلـب الأمـر اسـتعمال القـوة، زعـق جـدي في وجهـه زعقـة أسـمعت كل مـن في العـركى، حينـما صـدرت مـن عمـي تصرفـات ضايقـت جـدي مثـل شـد السـائق وإخراجـه مـن السـيارة بالقـوة ولطمـه عـلى وجهـه ودفعـه عـلى الأرض، تجمـع نـاس كثـيرة، أمسـكوا عمـي وأدخلـوه البيـت. اعتـذر جـدي للسـائق وقبـل رأسـه وركـب السـيارة وسـارت السـيارة في مسـارها.

أتى رمضـان وجـدي في حالـة خصـام مـع عمـي عمـر، وفي يـوم الوقفـة قابلـه الشـيخ شـوقي، أمـير الجماعـة بالعـركى واسـتفسر منـه إن كان صائمـا في هـذا اليـوم أم لا؟ أجابـه عمـي عمـر بأنـه بالطبـع صائـم، فاليـوم هـو المكمـل لشـهر رمضـان، قـال لـه الشـيخ شـوقي، لقـد ثبتـت رؤيـة الهـلال بالأمـس بالسـعودية وهـذا يقـضي بـأن تفطـر، ففـي الفقـه الحنبـلي إذا ثبتـت رؤيـة الهـلال بمـكان قريـب كان أو بعيـداً لـزم النـاس كلهـم اتبـاع هـذه الرؤيـة واستشـهد بقولـه تعـالى: «فَمَـنْ شَـهِدَ مِنْكُـمُ الشَّـهْرَ فَلْيَصُمْـهُ» ووجـه الدلالـة لهـذه الآيـة: قولـه سـبحانه (منكـم)، فهـو خطـاب عـام لسـائر الأمـة، كـور عمـى عمـر يديـه ودخـل بيـت جـدي فـاردا قامتـه و ماشـياً كـما يخطـو جنـدي الحراسـة في نوبـة حراسـته الليليـة منصاعـا لأمـر أمـير الجماعـة.

ارتشف الماء وطلب من زوجته إعداد الطعام، دخل جدي البيت ورأى عمي عمر يتناول الطعام، ذهل جدي لهذا فعمي عمر كان قد صام شهر رمضان وكان عمره ست سنوات، انقسمت البلدة لفريقين، فريق انضم للسنية وأفطر معهم وفريق آخر صام اليوم وأكمل الشهر، وفي مساء هذا اليوم ذهب الشيخ شوقي إلى نجع حمادي وقابل أمير الجماعة هناك، قال له: إن في مسألة اختلاف مطالع الهلال هناك قولان، ولعل الأقرب أنه لا يلزم أهل بلد العمل برؤية أهل البلد الأخرى، لاسيما البلدان الإسلامية البعيدة، ساق له شيخ الجماعة فتوى شيخ الإسلام ابن تيمية (إن الحكم عُلق بالشاهد والرائي، وهذا يقتضي أن من لم يشهد ولم ير لم يلزمه حكم الهلال، وعليه فإذا اختلفت المطالع فإن البلاد المخالفة لبلاد الرؤية لا يكون قد شوهد فيها الهلال ولا رؤية فحين إذن لا تثبت أحكام الهلال في حقهم).

رجع الشيخ شوقي من نجع حمادي متحسراً ونادماً عما حدث منه في نهار هذا اليوم، اعتذر لعم عمر متعللاً بأن كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، غضب جدي جراء ذلك وقال (حرام عليكم ما أحدثتموه في البلدة من فتنة، فإنكم لو صمتم الدهر كله لن تكفروا ذنب إفطار هذا اليوم).

***

وفي ثاني أيام العيد قدم الدكتور محمود رشوان عميد كلية

أصول الدين جامعة الأزهر - فرع أسيوط معيداً على جدي وعمي عمر. جلس الدكتور محمود بجوار جدي بعدما قبل يده ورأسه واستحلفه بالله بأن لا يخيب طلبه وأن يستدعي عمي عمر، ولم يكن عمي عمر بالبيت, فأمرني جدي بالبحث عنه وإخباره بقدوم الدكتور محمود، لما للدكتور محمود من معزة خاصة في قلب عمي عمر، فهو مثله الأعلى وقدوته في الحياة الذي طالما احتذى به في تصرفاته، وما أن سمع مني خبره حتى أسرع الخطى لاهثاً ومتلهفاً ومتوقاً لرؤيته، قبله عمي عمر على رسغيه وأقعده الدكتور محمود بجواره، على فوره طلب من عمي عمر بأن يعتذر لجدي ويقبل رأسه وعلى توه امتثل عمي عمر لأمر الدكتور محمود.

نظر الدكتور محمود إلى يد جدي فلم ير مسبحته الشهيرة التي طالما ما تدلت من يده فسأله عنها، نظر جدي إلى عمي عمر بامتعاض معرباً عن أسفه.

ساق الدكتور محمود رشوان حديثين يدلان على جواز عقد التسبيح بالنوى والحصى، وكذا بالسبحة لعدم الفارق لتقريره صلى الله عليه وسلم لأم المؤمنين صفية التي قالت: دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين يده ٤ آلاف نواة يسبح بها، فقال (لقد سبحت بهذا؟! ألا أعلمك بأكثر مما سبحت به، فقلت: علمني. فقال: قولي سبحان الله عدد خلقه) وعن سعد بن أبي وقاص أنه دخل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على

امـرأة بـين يديهـا نـواة أو حصـاة تسـبح بـه، فقـال (أخـبرك بمـا هـو أيـسر عليـكِ مـن هـذا وأفضـل: سـبحان اللـه عـدد مـا خلـق في السـماء، وسـبحان اللـه عـدد مـا خلـق في الأرض) أقـر لهـا النبـي ولم ينههـا.

وقـال الدكتـور محمـود رشـوان وبالنسـبة لصـلاة التراويـح فهـي مـن النوافـل المؤكـدة وهـي عـشرون ركعـة مـن غـير صـلاة الوتـر، ومـع الوتـر تصبـح ثلاثـة وعشريـن ركعـة.. وعـلى ذلـك مضـت السـنة واتفقـت الأمـة، سـلفاً وخلفـاً مـن عهـد الخليفـة الراشـد (عمـر بـن الخطـاب) رضي اللـه عنـه وأرضـاه - إلى زماننـا هـذا - لم يخالـف في ذلـك فقيـه مـن الأئمـة الأربعـة المجتهديـن إلا مـا روي عـن إمـام دار الهجـرة (مالـك بـن أنـس) «رضي اللـه عنـه» القـول بالزيـادة فيهـا إلى (٣٦ ركعـة)، وأمـا أمـر الاحتفـال بالمولـد النبـوي فقـد احتفـل بـه صـلى اللـه عليـه وسـلم بـأن صـلى وصـام يـوم مولـده وأمـر الصحابـة باتبـاع ذلـك، وعـن شراء الحلـوى في ذلـك اليـوم فـلا غضاضـة في ذلـك، ربـت عـلى فخـذ عمـي عمـر واسترسـل يقـول بتعجـب بأنـه في الـدول القـادم منهـا يحتفلـون بعيـد تتويـج الملـك عـلى العـرش أليـس مـن الأولى أن نحتفـل نحـن بمولـد سـيد المرسـلين.

واسـتدرك قائـلاً وأمـا عـن قضيـة شـد الرحـال لزيـارة الأوليـاء، قضيـة خـاض فيهـا المسـلمون قديمـاً واختلفـوا حولهـا اختلافـاً مـا كان ينبغـي أن يحـدث، وحـول الحديـث المـروي عـن الصحـابي أبي هريـرة وأبي سـعيد الخـدري رضي اللـه عنهـما، «تشـد الرحـال لثـلاث مسـاجد» فهـذه الروايـة جـاءت مـن غـير حـصر، فـلا أمـر ولا نهـي ولكنهـا جـاءت

بصيغة الخبر عنها, كان النبي صلى الله عليه وسلم. يشد الرحال إلى مسجد قباء، وهو ليس من الثلاثة، فقد روي البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال «كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي قباءً راكباً وماشياً»، المراد من الحديث النهي عن شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة بيان فضل وقدر هذه المساجد الثلاثة على ما سواها من المساجد لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم بالسفر إلى ما عداها كمسجد قباء ومقبرة شهداء أحد وبدر ومقبرة أهل المدينة (البقيع). أما الصلاة في المساجد التي يوجد بها أضرحة الأولياء والصالحين صحيحة ومشروعة، بل تصل إلى درجة الاستحباب وذلك من الكتاب والسنة وفعل الصحابة، فمن القرآن الكريم قوله «فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً». وسياق الآية يدل على أن القول الأول هو قول المشركين وأن القول الثاني هو قول الموحدين، وقد حكى الله تعالى القولين دون إنكار، فدل ذلك على إمضاء الشرعية لهما، بل إن سياق قول الموحدين يفيد المدح، بدليل المقابلة بينه وبين المشركين، بينما جاء قول الموحدين قاطعاً وأن مرادهم ليس مجرد البناء بل المطلوب إنما هو المسجد، قال الإمام الرازي في تفسيره «لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً» نعبد الله فيه ونستبقي آثار أصحاب الكهف بسبب ذلك المسجد، ومن السنة حديث أبي بصيرة رضي الله عنه أن أبا جندل ابن سهل ابن عمر دفن أبا بصير رضي الله عنه لما مات وبنى على قبره مسجداً

(بسيف البحر) وذلك بمحضر ثلاثمائة من الصحابة، وهذا إسناد صحيح كله عن ثقات، ومثل هذا الفعل لا يخفى عن الرسول صلى الله عليه وسلم، كما ثبت أنه قال «في مسجد الخيف قبر سبعين نبي» وقد ثبت في الآثار أن سيدنا إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر دفنا في الحجر من البيت الحرام، وأقر النبي صلى الله عليه وصلى ذلك ولم يأمر بنبش هذه القبور وإخراجها من المسجد الخيف والمسجد الحرام.

حاول عم عمر مقاطعته ولكنه استمر في الحديث، وأما حديث عائشة رضي الله عنها في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» والمساجد جمع مسجد والمسجد في اللغة مصدرها ميم يصلح للدلالة على الزمان والمكان والحدث ومعنى اتخاذ القبور مساجد أي سجود لها على وجه تعظيمها وعبادتها كما يسجد المشركون للأصنام والأوثان.

كثرت الحوادث الإرهابية بالمنطقة فما من أسبوع يمر إلا وتحدث حادثة سطو على محل من محلات الأقباط أو اغتيال أحد أفراد الشرطة.

أتى العمدة لجدي قبيل صلاة الفجر بقليل قائلاً بأنه نما إلى علمه بأنهم كتبوا لعمي عمر سجلاً في أمن الدولة، وأنه ينصح جدي بأن يبعد عمي عمر ولو لفترة مؤقتة لحين أن تهدأ الأحوال.

اغتم جدي من كلام العمدة فابنه البكري طفش ولا أحد يعرف

أخباره وابنه الثاني مطارد الآن من الشرطة ولو قبضوا عليه يغدو رهن اعتقالهم.

وبالفعل ارتحل عمي عمر عن العركي وهبطت مراسيه بضاحية العامرية بالإسكندرية بيد أن بها عددا غير قليل من أبناء العركي نزحوا إليها واشتغلوا في قرى الاستصلاح الزراعي المروية من ترعة النوبارية.

هناك تبدل شأنه بعد مصاحبته لمشايخ الدعوى السلفية الدعوية الأكثر مرونة ويسرا والأقل تشدداً من جماعات السلفية الجهادية الموجودة في أقاصي الصعيد.

بعد مرور خمس سنوات قضاها عمي عمر في كنف مزارع الطماطم والبطيخ، رجع إلى العركى بعدما أخبره جدي بهدوء الأوضاع، انزوى عمي عمر عنهم سيما أن أمرهم لم يعجبه؛ فبين الحين والآخر يعدلون عن آرائهم ويجرون مراجعات فكرية كان -ولو بالقليل من التروي- من الممكن تفاديها من أخطاء ارتكبوها مثل قتل النفس البشرية وتكفير الناس.

(٥)

(جدي عبد الحق)

جـدي عبـد الحـق هـو الـذي أسـماني أيمـن بإيعـاز مـن عمـي عمـر ونكايـة في والـدي إسـماعيل المسـعد، مـن كـثرة حديثـه عـن اليسـارية ومغالاتـه في حـب الفكـر اليسـاري ومدحـه لماركـس ولينـين وإنجلـز فـكان اسـمي أيمـن تيمنـاً باليُمـن. قـال لـه جـدي لقـد أسـميته أيمـن والله يجعلنـا مـن أهـل اليمـين، نظـر إليـه عمـي كاتمـاً ضحكـة خبيثـة تـشي عـن غيـظ. رد عليـه أبي قائـلاً بـأن بعـد مـوت عبـد النـاصر كل شيء تغـير فـلا عجـب مـن أن تتغـير الأسـماء.

لطالمـا كان جـدي يأخـذني معـه في تجوالـه في الأسـواق كي يتثنـى لي معاملـة النـاس ومفاصلـة التجـار، كنـت أقعـد بجـواره وفمـي لا ينبـس بكلمـة واحـدة ففـي مثـل عمـري السـكوت أفضـل بكثـير مـن الـكلام، كان جـدي يقنـع بالـشيء المعقـول مـن بيعـه مـع أنـه لـو سـاوم قليـلاً لأمكنـه جلـب مقابـل أكـبر مـما قبضـه، كان يقبـل يديـه عـلى وجهيهـا ثـم يريحهـا عـلى رأسي قليـلاً ثـم ينـزل بهـا عـلى صـدري ويقـول: هـذا نصيبـي، أدركـت في حينـي هـذا بـأن الـشيء المبـاع الـذي يفـوق مقداره

الطبيعي يغدو جشعا بغيضا يفقد للشيء نبل مطلبه.

كنت أتأمل تلك الحركة التي غدت لا إرادية في جدي. كانت تشبه لي دوران الكواكب والنجوم في مجرى فلك الكون الفسيح. كانت تشبه لي تعاقب الليل والنهار مكوناً أيام الحياة المديدة، في لحظات كنت أحدق النظر في عيني جدي فكنت أغيب عن الوعي، يخيل لي بأني أدور حول نفسي راقصاً رقصة المولوية الشهيرة.

كان أهل العركي ينادون جدي بالشيخ عبد الحق مع أنه لم يكن شيخاً للبلد وفي مرات كثيرة ينادونه بالعمدة مع أنه لم يتقلد منصب العمودية إلا أنه كان شيخاً وعمدة من الباطن فعندما تصعب الأزمات وتتفاقم يأتونه يطلبون منه العون، كان لجدي أكثر من موقف يشهد به الجميع في العركي ونواحيها مثل قيامه بالصلح بين عائلتين تفشى بينهما ثأر بغيض بسبب لعب الصبيان في الشارع، مثل اقتراحه بتقديم مبلغ من المال يتبرع به كل من ينزح إلى العركي من فرشوط لشراء مسكن يقدم كمساعدة للحالات الفقيرة، وتوسعة مدخل العركي الذي كان لا يتعدى ثلاثة أمتار, فالوالج إليها كان ينتظر بالخارج لفترة ليست بالقليلة حتى يتسنى انصراف الخارج منها، وقيامه بتعويض البيوت التي تضررت من جراء هدم أجزاء منها.

لكم زار مندرة جدي ناس كثيرون استضافهم جدي فيها، فمنهم من أخذ واجبه ورحل ومنهم من بات ليلته فيها مستريحاً من بعد المسافة ومشقة السفر أمثال أصحابه القادمين من كوم امبو

وإدفو ودراو، حينما يكون جدي جالساً أمام مندرته كل من يمتطي دابة ينزل من عليها احتراماً وتوقيراً له.

أحب جدي عبد الناصر وعشق ثورة ٢٣ يوليو مع أنه لم يستفد منها، أفدنته السبعة كفته وأغنته عن أي شيء، فرح لفرحة الفلاحين المعدومين وهم يستلمون عقود تمليك أفدنتهم من هيئة الإصلاح الزراعي، سره إنارة البيوت وأسعده ذهاب العاملين لمجمع الألومنيوم بصحراء الهو بنجع حمادي. ترأس جدي لجنة الاتحاد الاشتراكي على مستوى القرية وأناطوا به إحصاء الفلاحين المحتاجين للانتفاع بأفدنة الإصلاح الزراعي. أحصاهم جدي وكتب أسماءهم بما يرضي الله حتى أن أحد الفلاحين المحتاجين كان رجلا سليط اللسان لم يسلم أحد من شتائمه. كتب جدي اسمه قائلاً: (هذه نقرة وهذه نقرة).

كان جدي يسافر كل عام إلى القاهرة لحضور المؤتمر العام للاتحاد الاشتراكي العربي على مستوى القطر. كان يصغي لمصطلحات لم يفهمها ولم يلق لها بالاً مثل: (البرجوازية المتطفلة، قوى الشعب العاملة، الرأسمالية الانتهازية، الملكية الخاصة الجشعة).

أكثر شيء كان يبهجه أن يرى عبد الله الطواب العامل بقمائن الطوب جالساً بجوار أحد بكوات الزمن البائد، وفي مرة أجروا سحب قرعة لشخص يقدمون له هدية رمزية، سألوه بما تحس الآن بعد الثورة وبما كنت تحس قبلها؟ قال لهم بأنه كان قبل الثورة يشعر كأنه امرأة وبعد الثورة أضحى رجلاً، ضجت القاعة

بعاصفة من التصفيق المدوي.

كنت أسترق السمع لجدي وهو مختلٍ بنفسه يدندن «أمن العدل أنهم يردون الماء صفواً وأن يكدر وردي، أمن الحق أنهم يطلقون الأسد منهم وأن يقيد أسدي»، كان جدي لما يحزن ويضيق صدره يطلب مني فتح الكاسيت على خطبة عبد الناصر احتفالاً بتوقيع معاهد الجلاء في ١٨ يونيو بميدان المنشية بالإسكندرية، بعد مفاوضات شاقة استمرت لعدة شهور جرت أثناءها عمليات فدائية قضت مضاجع العسكريين الإنجليز في القناة.

كانت الخطبة في ٢٦ أكتوبر في مؤتمر شعبي احتشد فيه نصف مليون مواطن مضى عبد الناصر يشرح الاتفاقية للشعب وفجأة دوت ثماني طلقات متتالية تجاه عبد الناصر وبعد فترة من الفوضى سمع صوت يخاطب الجماهير (أيها الرجال فليقعد كل في مكانه، دمي فداءكم، حياتي فداؤكم، دمي من أجلكم ومن أجل حرياتكم ومن أجل عزتكم ومن أجل كرامتكم). ثم يقول لزملائه (اتركوني يستكمل كلامه (أنا فداؤكم وسأموت من أجلكم، إذا مات عبد الناصر، فأنا سأموت مطمئنا، وكلكم عبد الناصر، تدافعون عن العزة والكرامة).

كانت الدموع تترقرق في عيني جدي، قلت له مرة وبراءة الطفولة في نبرات صوتي: من هؤلاء يا جدي؟ رد عليّ جدي قائلاً: هم من قتلوا السادات والخفير النظامي عبد الستار حارس استراحة ضباط الشرطة بفرشوط.

(٦)
(مكتب المتحدة الدولي للمحاسبة والمراجعة)

اجتمـع بي جـدي في غرفتـه وبعـد قليـل أتى عمـي عمـر وأعقبتـه عمتـي تونـس.

نظر إليّ جدي حانقاً ثم قال:-

- ما حدث منك ليلة أمس شيء لا يليق بك!؟.
- البادئ أظلم يا جدي، سعد هو الذي بادرني بالشتائم.
- أنت إنسان متعلم ما كان لك أن تنزل إلى مستواه.

فترة من الصمت سادت ثم أردف يقول جدي:

- طالت فترة بطالتك يا أيمن.

أطرقت النظر إلى الأرض على استحياء ثم قلت:

- هذه ليست مشكلتي، هذه مشكلة جيل بأكمله.

ربـت عمـي عمـر عـلى منكبـي وضمنـي إليـه ضمـة خفيفـة وقـال بنـبرة حانيـة:-

نحـن مقـدرون ذلـك، منـذ مـدة وأنـا أكلـم ناسـا كثيريـن بالنسـبة لـك، وبالأمـس اتصـل بي زميـل دراسـة الآن أضحـى محاميـاً مشـهوراً

بالقاهـرة، قائـلاً بتأسـف بـأن فـرص العمـل الحكومـي أضحـت ضئيلـة، وإن كان يرغـب في العمـل بالقطـاع الخـاص فباسـتطاعته إيجـاد فرصـة بمكتـب محاسـبة ومراجعـة، وعـلى الفـور وافقـت عـلى ذلـك.

اكتسى وجه عمتي تونس دهشة بالغة وقالت:-

- كيف هذا؟ يسافر أيمن ويتركنا، أنا لا أتصور البيت بدونه.

نظر إليها جدي شزراً وقال بحنق:-

- هـذا الـكلام لا فائـدة منـه، أيمـن أصبـح رجـلاً وعليـه الآن أن يشـق طريـق حياتـه.

لم يصـغ ممـدوح لكلامـي بالاكتفـاء بتوصيـلي إلى موقـف عربـات الأجـرة وأصر عـلى وداعـي أمـام محطـة القطـار بفرشـوط.

***

كان في انتظـاري سـعيد ابـن خالتـي الطالـب بكليـة الطـب والـذي سيسـتضيفني عنـده ريثـما أجـد مسـكناً، ونحـن نلـج شـارع حجـاج زلـط بالشرابيـة ترامـى إلى أذني ضجيـج السـماعات ونـداءات البائعـين الجائلـين وصـوت منبهـات السـيارات، ورائحـة الكبـدة والسـمك المقـلي والفـراخ الموضوعـة عـلى الشـوايات ودخـان المعسـل التفـاح كل هـذا أشـعرني بالألفـة، أنسـتني ولـو قليـلا وحشـة فـراق العـركي.

مكتـب المتحـدة الـدولي للمحاسـبة والمراجعـة عبـارة عـن شـقتين متقابلتـين في الطابـق السـابع للعقـار رقـم ١٥٧ بشـارع أحمـد عـرابي بضاحيـة المهندسـين، أجلسـني موظـف الاسـتقبال ريثـما يفـرغ الدكتـور

زهدي الشناوي من مقابلته، رددت النظر في المناضد الفاخرة والمقاعد الوثيرة، أجهزة حاسوب متناثرة على المكاتب المعمولة من الخشب الزان، لفت انتباهي خلو المكاتب من الموظفين فيبدو أن طبيعة العمل تستلزم الخروج إلى مواقع العمل.

رحب بي الدكتور زهدي الذي عرفت من خلال لافتة صغيرة على مكتبه بأنه كان عميداً لكلية التجارة ببنها، قدمت له كارت التوصية الذي قرأه، راح يسألني عن سني ومؤهلي وتقديري والأعمال السابقة وأسئلة في مجال المحاسبة وأسئلة أخرى في المعلومات العامة، استجمعت خبرتي في المقابلات التي كنت أجريها إبان عملي في الغردقة وفي قراءاتي في كتب التنمية البشرية، أجبته بطلاقة استشفيت من خلالها الرضا عني، أومأ برأسه بالموافقة وأخرج ورقة صغيرة من درج مكتبه دون فيها اسمي وموافقته المبدئية وأشار لي بالذهاب إلى الأستاذ عبد العزيز مدير إدارة المكتب.

الأستاذ عبد العزيز يبدو من ملامحه أنه في أواخر عقده الخامس، نظر إليّ من خلف عويناته الطبية وقال:-

- يا أستاذ أيمن في هذا المكتب لا مجال للمجاملة، العمل هو الذي يزكي صاحبه، المثل الشعبي الدارج (مايحكش جلدك إلا ضفرك) اجعله نصب عينيك، إن أجدت وجدت وإن استهترت فشلت، سيبدأ عملك من خلال فترة تدريب سيقوم بها زميل لك وبعدها نقرر إن كنت ستستمر معنا أم لا؟

(٧)

(سالي وهدان)

قدم لي الأستاذ عبد العزيز زميلي الذي سيتولى تدريبي، فوجئت بأنه أنثى في أوائل عقدها الثالث، نازعني شعور بالقلق فزيها الفاضح لمفاتنها أوجسني تجاهها، بنطلون «جينز» ضيق يظهر فلقتي مؤخرتها، «تي شيرت» شفاف وواسع يظهر منه منبت نهديها، سرعان ما زال هذا الشعور فعيناها الخضراوان ووجنتاها البيضاويتان والمشربتان بشيء من الإحمرار وتقسيماتها الرائعة أثارت في بهجة لم أقدر على كتمانها، مدت لي يدها، ترددت في السلام عليها فأنا لم أتعود على مصافحة النساء، حتى يدي كانت ترتعش وهي تلامس يدها ولساني يتهدج وأنا أبادلها التحية، ضحكت سالي وقالت: يبدو أنكم في الصعيد تعزفون عن مصافحة النساء، قال الأستاذ عبد العزيز بأنني محظوظ، فسالي وهدان من أكفأ المحاسبين الموجودين بالمكتب.

أخرجت سالي من درج مكتبها فاتورة شراء لشركة الأمانة للمنتجات الطبية وطلبت مني إجراء قيد يومي لها ثم قدمت

لي دفترا للمقبوضات وآخر للمدفوعات الخاصين بنفس الشركة وأمرتني أن أفحصه بدون أن أحدث به أي خدش.

شيئاً فشيئاً بدأت أتأقلم مع واقعي الجديد، مكتب المحاسبة والمراجعة أضحى شغلي الشاغل ففيه أقضي غالبية أوقات اليوم، ففي النهار مع زميلتي سالي نفحص الحسابات ونراجع الدفاتر للشركات المتعاقدة مع المكتب وفي الليل نقوم برصد الحسابات وتدوين الملاحظات بدفاتر المراجعة.

وبمرور الوقت اكتسبت خبرات ومهارات في فنيات علم المحاسبة والمراجعة القانونية، فالحساب الذي كان يستغرق وقتا طويلا في إعداده أضحيت أجريه في وقت ضئيل والحساب المعقد الذي كان يتطلب مني جهدا فائقا أصبحت أفك طلاسمه في غمضة عين.

الأستاذ عبد العزيز لم يبخل عليّ بأية معلومة أو تقنية جديدة، فمع انطوائه وعزوفه عن الناس إلا أنه تبناني بعاطفة أبوية، هو رأى في خامة طيبة وعجينة طرية قابلة للتشكيل وأنا رأيت فيه المعلم المثالي والمربي الفاضل الخلوق.

زميلتي سالي يا لها من إنسانة رائعة فمع أرستقراطيتها وطبقة عائلتها الراقية لم تصعر لي خداً، فكانت تنتظرني بسيارتها الفارهة أمام محطة سعد زغلول القريبة من ضاحية جاردن سيتي حيث تسكن سالي، عرفت أنها ابنة رجل ثري، توفي إثر حادث سيارة ولم تطق العيش في بيت زوج أمها، فتكفلت خالتها العانس بتربيتها؛ فأضحت هي ابنتها التي ظفرت بها من الحياة تؤنس وحدتها

وتشغل وقت فراغها، خالتها إنسانة طيبة بحق فما من مرة قابلتني إلا وقدمت لي ما يجود به بيتها، كانت نظراتها الحانية تشعرني بود نحوها.

في مرة وأنا في بيتهم فتحت سالي شيش البلكونة وأعطتني العلم المصري ولفت حول عنقي الكوفية الفلسطينية وأوقفتني مسنداً ظهري على حافة السور الحديدي للبلكونة وبأناملها الرقيقة ثبتت وجهي قبالة كاميرا هاتفها المحمول والتقطت لي صورة، كان النيل الجذاب خلفيتها والشمس الساطعة إضاءتها وابتسامتي المشرقة عنوانها، وعلى توها حفظتها في جهازها «اللاب توب» بعدما استأذنتني في ذلك. سألتني سالي عن مدى معرفتي بالفيس بوك؟ أجبتها بأني قرأت عنه في الصحف قراءة عابرة ولم يستدع اهتمامي تصفحه، قالت سالي بأن الفيس بوك ليس موقعاً للمعلومات بل هو موقع للتواصل الاجتماعي، عرضت عليّ فتح حساب لي على الفيس بوك فوافقت على الفور، أنشأت لي سالي صفحة على الفيس بوك، كانت الصورة تزين مقدمتها.

تعلقت بسالي فما من مرة قابلتها إلا وأحسست بشيء جديد يطرأ منها يبهجني، اصطحبتني سالي في كافيه وسط البلد غالبية رواده من الشباب، كنا في بادئ الأمر ثلاثة ما لبث أن انضم إلينا الكثيرون. الكل تسابق بالكلام عن الوطن وما يئن به، هموم الناس شغلهم الشاغل والحرية هي مناط أحلامهم، أدهشني أبلغ دهشة وأنا أرى خصلات شعرهم تتدلى على مناكبهم وبناطيلهم المتدلية

تظهر حافة ملابسهم الداخلية، سلاسل في أعناقهم وإنسيالات تعلو مقابض أيديهم، هل حقاً هؤلاء قادرون على أن يحدثوا شيئاً من التغيير.

بدأت سالي الكلام بتعريفهم بي واستأذنتهم بالموافقة على أن أكون عضواً في جروبهم على الفيس بوك، وراحت تدلي بدلوها بأن الحديث السائد على الساحة الآن هو الانتخابات الأمريكية وما أظهرته نتيجة الاستطلاعات، إنها لنقطة فاصلة في تاريخ البشرية إنسان من جذور أفريقية كان أجداده يساقون قسراً إلى غياهب العبودية هو الآن على أعتاب البيت الأبيض.

(٨)

(عدنـــان)

منـذ أسـبوع قـال لي الأسـتاذ عبـد العزيـز بأنـه يعـد لي مفاجـأة، لم تطـل كثـيراً فـترة انتظـاري إلا وأخـبرني بأنـه منـذ مـدة ليسـت بالوجيـزة وهـو يتابعنـي، وأزاح البعـض عـليّ لتقديـم رشـاوي في صـور هدايـا إلا أن قـوة نفـسي الأبيـة زكتنـي فيـه، وزاد عـلى ذلـك التقريـر الـذي كتبتـه سـالي عنـي والـذي زكتنـي وأثنـت عـلى أخلاقـي وأعطتنـي فيـه امتيـازا.

الأمـير عدنـان ابـن الشـيخ شربتـلي صاحـب كـبرى شركات المقـاولات في الـشرق الأوسـط بحاجـة لمديـر لأعمالـه بالقاهـرة، الأسـتاذ عبـد العزيـز رشـحني لأكـون بجـوار الأمـير عدنـان مديـراً لمكتبـه وهمـزة الوصـل بـين أعمالـه وبـين المكتـب، مكتـب الشـيخ شربتـلي متعاقـد مـع المكتـب منـذ عـشرة أعـوام. كان المكتـب خلالهـا عنـد حسـن ظنـه، الأمـير عدنـان هـو الـذي يديـر شركات والـده الموجـودة بالقاهـرة الآن بعدمـا تدهـورت حالـة والـده الشـيخ شربتـلي، مرتبـي كـما هـو في المكتـب والشـيخ عدنـان سـيمنحني مرتبـاً إضافيـاً يضاهـي مـا أتقاضـاه مـن المكتـب.

استقبلني عدنان بابتسامة بشوشة أزالت قلقاً جما كان يوجسني ضده، وهو يقيم بجناح خاص محجوز له ولعائلته على مدار العام بفندق النيل هيلتون، قال لي الأمير عدنان بأنه لا يبخس الناس أشياءهم فمن يعمل يلاق نظير عمله ومن يتكاسل لا مكان له.

عرفني الأستاذ عبد العزيز بأن الأمير عدنان ابن الشيخ شربتلي أمه مصرية من سلالة عريقة فهي بنت الدرملي باشا وهو ممن أممت الثورة ممتلكاتهم، تزوجها أبوه إرضاءً لرغبة والده الشيخ طلال الذي كان يكن الاحترام لصديق عمره وشريكه في التجارة الدرملي باشا الذي لم يتحمل مأساة تأميم ممتلكاته وتوفي وبقيت زوجته شويكار الخربوطلي وابنتهما فريال لا عائل لهما ولا شيء يعيشان به. تكفل الشيخ طلال بضيافتهما بالمملكة، أمر ابنه الشيخ شربتلي بالزواج من فريال عرفاناً منه بجميل الدرملي باشا ووفاءً لصداقته.

كان عدنان ينتظر إجازتي نصف العام وآخر العام بفارغ الصبر حتى يأتي إلى مصر التي تجري في عروقه، وعند مجيئه يخلع ملابسه الخليجية ويستبدلها بالملابس المصرية، يدع نفسه في الشوارع والطرقات كي تأخذه إلى ما يعشق، يروح يمشي مستمتعاً بوجوه الناس وبواجهات المباني وبضجيج السيارات وبصخب الأغاني الشعبية، سينمات مصر ومسارحها وملاهيها ومقاهيها متيم بها، يشغف بمباريات المنتخب المصري ويقعد أمام التلفاز متلهفاً لهدف يحرزه المنتخب يفرح تلقاءه ويخرج في الشارع مع جموع

المصريـين حامـلاً علـم مـصر فرحـاً وسـعيداً بفـوز المنتخـب ببطولـة أفريقيـا، اللهجـة المصريـة يتقنهـا ويتلفظهـا بتلقائيـة جميلـة، لا يوجـد مـكان في مـصر إلا وزاره بدايـة مـن تعامـد الشـمس عـلى رأس الملـك رمسـيس بأبـو سـمبل نهايـة إلى حفـلات ليـالي التليفزيـون بماريـنا، محـل كـشري أبـو طـارق بشـمبليون ومسـمط سـلطان بإمبابـة وفلافـل التابعـي بشـبرا وحلـواني العبـد ببـاب الشـعرية لا تمـر زيـارة لـه إلا ويرتادهـا.

تعـود عدنـان أن يقـف بطابـور العيـش المـوازي لطابـور السـيدات يختلـس النظـرات لأجسـادهن الممتلئـة وصدورهـن المكتظـة ويضحـك لقفشـاتهن اللاذعـة. يتلصـص النظـرات إلى جمـوع الأحبـة عـلى الكورنيـش وقبلاتهـم المسروقـة والخجلـة. في مـرة كان في حديقـة الأورمـان ورأى أمامـه طالبـا وطالبـة هربـا مـن حـر الجامعـة، ونسـيا أنفسـهما وانهمـكا في القبـلات الملتهبـة وبالصدفـة ضبطهـما أمـين شرطـة تابـع لنقطـة شرطـة المرافـق العامـة الكائنـة بالحديقـة، وكان يريـد عمـل محـضر فعـل فاضـح في مـكان عـام، أشـفق عليهـما وهـما يترجيانـه ويتوسـلان إليـه ليدعهـما وينصرفـا لحالهـما، اقـترب عدنـان مـن أمـين الشرطـة وأعطـاه خلسـة ٢٠٠ جنيـه فـرح بهـا وتركهـما.

أقـر البرلمـان المـصري قانـون حصـول أبنـاء المصريـات عـلى الجنسـية المصريـة، حجـز عدنـان لنفسـه تذكـرة ولم ينتظـر قـدوم إجـازة نهايـة العـام الـدراسي، خُيـل إليـه ربمـا ترجـع السـلطات المصريـة وتعـدل عـن قرارهـا، ارتجفـت أعضـاؤه وطفـرت دمـوع الفـرح منـه وهـو يـدون

استمارة الجنسية المصرية، لم يصدق نفسه وهو يستخرج جواز السفر المصري.

سأله سائق التاكسي وهو آت من مصلحة الجوازات والهجرة بعدما أحس من لكنته بنبرة خليجية:-

- هل أنت مصري؟

أجابه عدنان على الفور وهو يضغط على الحروف ويطرق حافة تابلوه السيارة.

- أنا مصري، مصري، مصري،

(٩)
(شويكار الخربوطلي)

بعـد مـوت عبـد النـاصر قـررت شـويكار الخربوطـلي جـدة عدنـان الرجـوع إلى مـصر، لم يبـق لهـا سـوى شـقة بضاحيـة الزمالـك تركتهـا لهـا الثـورة، وعندمـا أتـت إلى مـصر زارت قـبر زوجهـا الدرمـلي باشـا وطلبـت مـن المـشرف عـلى مدافـن عائلتهـا حفـر قـبر لهـا بجـوار قـبر زوجهـا.

بعـد يومـين مـن قدومهـا وكان قـد تقـدم بهـا العمـر رَجـت ابنتهـا فريـال بـأن تصحبهـا لزيـارة المطريـة الجميلـة لتسـتحضر طفولتهـا وتتذكـر الأيـام الجميلـة التـي عاشـتها في قـصر خالهـا الأمـير يوسـف كـمال، أبـت فريـال ذلـك فربمـا يقبضـون عليهـا لـو عرفـوا حقيقـة أمرهـا، أعـادت شـويكار إلحاحهـا لكـن لم تجـد بـداً مـع رفـض ابنتهـا فريـال.

أول مـا وطـأت رجلهـا محطـة القطـار بالمطريـة وشـاهدت سـور قـصر خالهـا قالـت لعدنـان بـأن هـذا قـصر خالهـا الأمـير يوسـف كـمال، أوقفهـا عدنـان عـلى كوبـري المشـاة الرابـط بـين رصيفـي

القطار فتراءى لها القصر، تذكرت أيام طفولتها في هذا القصر البديع وراحت تصفه لعدنان كأنه كتاب مفتوح أمامها ، والذي هو عبارة عن تحفة معمارية ذات ذوق رفيع، يطل بواجهته على حديقة اتساعها حوالي ١٤ فدانا، أما عن تصميمه المعماري فهو على الطراز الأوروبي ويرجع إلى عصر النهضة بداية من واجهة القصر الرئيسية، فالأعمدة والزخارف النباتية تظهر فيها التأثيرات الغربية، فالقبة المفتوحة على العقد التي تبدو أقرب إلى قرص الشمس حينما تتسع بأنوارها على الكون، وللقصر أربع واجهات تباعاً للاتجاهات الأصلية وجميعها تتبارى في الجمال المعماري أما في داخل القصر فهناك أكثر من قاعة مثل القاعة الأوروبية والقاعة اليابانية، وقاعة الاستقبال التي كان يشغلها الأمير يوسف كمال ويتصدر جدار الواجهة لوحة للأمير وبعض رفقائه أثناء رحلات الصيد، أما القاعة العربية تجعل من يدخلها يعيش في أجواء عصر المماليك، إذ جمع الأمير يوسف كمال محتوياتها من قصور بعض المماليك القديمة، تتغطى جدران القصر بأقمشة ذات ألوان وزخارف متكررة تحيط بها إطارات خارجية، ويوجد بالقصر أعمدة خشبية فيها مسارات فنية.

رأت على واجهة القصر لافتة عملاقة لم تستطع قراءتها من خلف عدساتها الطبية فقالت لعدنان: ما المكتوب هذا؟، أجابها عدنان: مركز بحوث الصحراء، قالت شويكار متعجبة: أي صحراء هذه التي استصلحتموها!؟ ثم نزلت من على الكوبري وخرجت من

محطة القطار وتجولت في الشارع المحاذي لسور القطار والذي تنفتح عليه قصور أقاربها من ناحية أخرى، تذكرت الشارع عندما كانت تحفه الأشجار ذات الحجم الكبير أمثال أشجار دارنا وأشجار الجنة وأشجار الفستق الصيني وأشجار الفيكس وأشجار النخيل الأفريقي قالت لعدنان: ما هذا الشارع، قال لها عدنان: شارع ترعة الجبل، قالت بسخرية وهي تتذكر عبد الناصر:(ترعة الجبل أم ذئاب الجبل، لجمالكم مفهوم آخر للجمال) وتذكرت المنطقة التي كان ينتوي خالها الأمير يوسف كمال بأن يجعلها مشتلا مفتوحا لنباتات الزينة، وتذكرت عندما كانت ترافق والدها الخربوطلي باشا في تلك المنطقة ممتطيا عربة يجرها حصانان والتي كانت تقسم إلى أحواض، أحواض تزرع فيها نباتات زينة للظل وأحواض أخرى تزرع فيها نباتات زينة الأسوار وأحواض صغيرة كان يزرع فيها نباتات الزينة المتسلقة أمثال نبات الياسمين البلدي، أما الأحواض الكبيرة فكان يزرع بها نباتات الزينة المائية مثل نبات البري المصري ونباتات العصاري مثل صبار النمر.

ضحكت شويكار الخربوطلي في سرها إلا أنها لم تستطع كتمان ضحكتها فأطلقت لها العنان، فقال لها عدنان: أضحكيني معكِ قالت: تذكرت عندما كنت أرافق خالي في هذه المزرعة وكنت لم أكمل عامي الرابع، قطفت زهرة وقدمتها له فضحك وقال لي: هل تعرفين اسم هذه الزهرة فقلت له: لا، قال: هذه هي وردة الحمار، ثم ضحك خالي وضمني إليه ضمة خفيفة حانية.

وقفت كثيراً أمام قصر والدها الدرملي باشا، اغتمت وهي ترى أمامها القصر تحول نادياً رياضياً للمطرية وهالها ما رأت أمامها، شباب يفركون نبات البانجو لإخراج بذره ويلفون قراطيس تخرج منها سحب من الدخان يخنق الصدور.

انزعجت وهي ترى العشوائية القذرة. قالت بتهكم: هل هذه هي الحياة الكريمة التي نادت بها الثورة!؟، ثم قالت لعدنان ما اسم هذا القرف سأل عدنان أحد المارين فقال له (عزبة الليمون) قالت شويكار بسخرية: اقتلعتم كل شيء جميل ولم تبقوا لنا سوى الليمون المُر لنتجرعه، أصرت شويكار أن تلج عزبة الليمون ولم تصغِ لكلام عدنان بالاكتفاء بذلك القدر من التجول والرجوع إلى المسكن.

وعندما حطت قدمها في العزبة أوقفها شابان متشردان شاهرين المطواة في وجهيهما، أعطاهما عدنان حافظة نقوده وهاتفه ونظارته الشمسية، لم يكتفيا بذلك وأمراه بخلع حذائه الرياضي، نزعا حقيبة يد شويكار التي قاومتهما إلا أنهما أزاحاها فوقعت على الأرض.

جلست شويكار على الأرض تبكي وتلطم خديها، اكتنفها رهط من الناس، كانت من بينهم سيدة نوبية وكانت سالفاً تشتغل في قصر خالها، وهبها الأمير يوسف كمال نصف فدان باعته وبثمنه أصبحت من أعيان المنطقة، تذكرتها النوبية وذكرتها بنفسها وضمتها إليها وراحتا في عناق حار ممزوج بالبكاء، قالت النوبية:

هـذه السـيدة كانـت زهـرة يفـوح منهـا العطـر الشـذي وكانـت قمـراً يسـتطع منـه جـمال وضـاء، حـرام عليكـم مـا اقترفتمـوه في حقهـا.

كانـت شـويكار هانـم الخربوطـلي عندمـا ينقـص البوتاجـاز تصـب غضبهـا عـلى عبـد النـاصر وعندمـا يغلـو ثمـن الطماطـم والبصـل والخيـار وتعمـل طبـق سـلطة تقـول: إن هـذا الطبـق تكلـف عشريـن جنيهـاً في أيـام الملـك كنـا نشـتري بكلفتـه جمـلاً نذبحـه كان كل مـن في القـصر يـأكل منـه ويفيـض.

في جنـازة شـويكار الخربوطـلي كان عدنـان يسـترق السـمع إلى بعـض النسـوة المتقدمـات في العمـر والمصاحبـات لجدتـه شـويكار قائـلات بحـسرة وبصـوت خافـت وبـأسى (قتلهـا عبـد النـاصر).

كـره عدنـان عبـد النـاصر هـو الآخـر فـكان يسـمع أبـاه يعلـق وهـو يشـاهد التلفـاز وانتفاضـة الحجـارة والمجـازر الإسرائيليـة، بأنـه لو هناك شيء قليـل مـن الحكمـة والتعقـل للأمـور لحلـت القضيـة الفلسـطينية، عبـد النـاصر بحماقتـه وتهـوره أضـاع فرصـا كثـيرة كانـت كفيلـة بـأن تقـي الأمـة ويـلات حـروب خاضتهـا مـا كان لهـا أن تخوضهـا و مقدرات أضاعهـا مـا كان لهـا أن تضيـع.

نصحنـي الأسـتاذ عبـد العزيـز بالبعـد عـن هـذه المنطقـة الشـائكة في حيـاة غدنـان فكنـت أتجنـب الحديـث عـن عبـد النـاصر وعـن الثـورة.

(١٠)

(رفح المصرية)

هاتفني ممدوح قائلاً: بأنه لم يطق العيش في العركي بدوني، البيوت غدت كالحة والطرقات موحشة حتى إن شجرة الجميز التي كنا نتسامر تحتها غدت مفزعة، بعد رحيلي كان ممدوح يصبر نفسه بالعمل في أشياء غير ذات قيمة إلا أن ذلك لم يلهه عني وفي آخر الأمر رافق ابن خاله ورحل إلى مدينة رفح المصرية.

رفح مدينة صغيرة تقع في أقاصي الشمال الشرقي على الحدود مع قطاع غزة، لا يفصلها عن رفح الفلسطينية سوى سور من السلك الشائك تحرسه قوات حفظ السلام. ذهل ممدوح وهو يرى أمامه حوش المبيت المكتظ بأنفار اليومية، هاله منظرهم وهم نائمون على جنوبهم في صفوف رأسية تقاطعها صفوف عرضية مثل سمك الرنجة في الكرتونة حتى إن كعوب أقدامهم تلامس أنوف بعضهم البعض، ملابسهم المهترئة المعلقة على حبل مفتول من ليف النخيل تفوح منها رائحة عفنة خانقة، إناء كبير من الألومنيوم السميك تفور منه المياه والكل يتسابق للغرف منه

بسطل يفرغه في جردل مملوء بالماء البارد يحمله ويختبئ خلف ستارة من القماش ليستحم به، طبق الفول في الصباح يكاد لا يرى من فرط الأيادي الممتدة له.

في أول أسبوع من قدومه اشتغل مع ابن خاله بمزارع الزيتون والخوخ، بعد ذلك كان يذهب إلى سوق عمال اليومية، كان يتقرفص على مصطبة عريضة مزحومة بالفعلة ما إن تأتي سيارة تريد خمسة أنفار حتى يهب ما لا يقل عن ثلاثين نفرا، يتسارعون كي يربح منهم من يربح باليومية.

كل يوم يذهب ممدوح إلى السوق ويرجع خالي الكفين محبط الآمال، مرت عشرة أيام ولم يفز إلا بيوميتي عمل. هذا الأمر لا جدوى منه فكان كلما يعقد العزم للرجوع للعركي يتذكرها بدوني فيتراجع عن قراره ويعاود البحث من جديد عن عمل لا يهمه كثيراً الظفر بنقود بقدر تعويض غيابي عنه.

بعد صلاة العشاء صافحه الشيخ سالم أحد أبناء قبيلة المهاميش ثم انتحى به جانباً وحدثه هامساً في أذنه بأنه يريده في أمر مهم وعليه انتظاره في الجانب الأيمن المحاذي لسور بيته.

دعاه الشيخ سالم لاحتساء كوبين من الشاي في منزله القريب من الجامع، وفي بيته وجد «علي أبو العيون»، أحد شباب العركي والذي نزح إلى رفح من فترة ليست بالقصيرة واستقر بها وتزوج أخت الشيخ سالم، فاتحه الشيخ سالم في الأمر بأنهم بصدد حفر نفق عملاق يربط بين رفح المصرية والفلسطينية وأنهم يحتاجون

لعمال ذوى نوعية خاصة، وأنه منذ قدومه وهو يتابعه فلم يفته صلاة عشاء إلا وصلاها بالإضافة إلى دماثة أخلاقه وانزوائه بنفسه عن مصاحبة المستهترين، المهمة بجانب حسها الإنساني النبيل لها مقابل مادي كبير، اليومية ٥٠٠ جنيه سارية سواء عمل أو حدث شيء طارئ أوقف العمل.

لا يهنأ باللذة إلا كل مجازف.. تمتم ممدوح بذلك وهو راجع إلى المبيت، أفصح لابن خاله عن ما حدث معه في بيت الشيخ سالم والذي رفض ذلك على فوره فلو افتضح الأمر سيكون مصير ممدوح السجن.

(١١)
(زينــب)

قائمـة الممنوعـات في حيـاة عدنـان لا تعـد ولا تحـصى، فممنـوع عليـه مجالسـة النسـاء والاختـلاط بهـن، صوتهـن حـرام وعملهـن غـير جائـز حتـى قيـادة السـيارة تدخـل في الشـبهات التـي عليـه اجتنابهـا، المـرأة مـا هـي إلا وعـاء جنـسي يفـضي فيـه الرجـل غريزتـه.

لم تكـن لعدنـان أي تجـارب عاطفيـة بـل تعـد المـرات التـي قابـل فيهـا فتيـات معـدودة عـلى أصابـع اليـد الواحـدة، ففـي شـتى مراحلـه التعليميـة كان يمنـع الاختـلاط فيهـا.

في مـرة كان مدعـوا مـع جدتـه شـويكار لحفـل زفـاف أحـد أقاربهـا، الكثـير مـن الفتيـات تقربـن منـه بعـد معرفتهـن بثرائـه وعظـم عائلتـه، رحـن يجريـن معـه حديثـا، تصبـب العـرق منـه وتهـدج صوتـه وأحـس باضطـراب يـسري بداخلـه، انـزوى جانبـاً عنهـن، أخـذت الفتيـات يضحكـن عليـه ويرمينـه بالحلـوى ويقلـن بأنـه لـن يتـزوج أبـداً إن كانـت حالتـه مثـل هـذه.

غـدا عدنـان يشـتهي النسـاء ويختلـس النظـرات لهـن وإذا أعجبتـه

فتـاة يخفـي صورتهـا في داخلـه وفي آخـر الليـل وهـو يتأهـب للنـوم يجردهـا مـن ملابسـها ويتخيـل بأنـه يمـارس الجنـس معهـا.

في ذات مـرة كان في ميـدان كوبـري القبـة رأتـه فتـاة فتقربـت منـه فهـي تعرفـه وهـو لا يعرفهـا، هـي بنـت حـارس العقـار زينـب، والتـي كانـت تشـاهده وهـو يصعـد السـلم المواجـه لغرفتهـم، خيـل لزينـب بـأن اللصـوص سرقـوا حافظـة نقـوده وهـو الآن لا يملـك ثمـن تذكـرة المواصـلات، عرفتـه بنفسـها وجلسـت بجـواره بأتوبيـس النقـل العـام وقالـت لـه بأنهـا تـدرس بكليـة الصيدلـة بجامعـة عـين شـمس. أعجـب عدنـان بهـا وهـي تكلمـه عـن دراسـتها، أحـب فيهـا طلاقتهـا وجراءتهـا وحـلاوة روحهـا، افتـتن بعطـر رائحتهـا واتسـاق ملابسـها وأناقـة نظارتها الشمسـية، انطلـق لسـانه وفـاض بمـا يجيـش في صـدره.

كان يسـتيقظ مبكـراً ريثـما تخـرج زينـب مـن العقـار ليتبعهـا الخطى إلى سـوق الخضـار، كانـت زينـب تكتـم ضحكتهـا وهـي تـراه منتشـيا وسـعيداً وعينـاه لا تفارقهـا، وعندمـا يقـترب مـن العقـار يمهـل الخطـى ويثرثـر بالحديـث حتـى يبقـى أطـول وقـت بجوارهـا، كانـت تشـعر بالشـفقة عليـه وتقـول في سرهـا «مالـك يـا مدهـول إيـه الـلي جـرا لـك».

تعـددت المـرات التـي خـرج فيهـا معهـا، ينتظرهـا متلهفـاً لرؤيتهـا شـغوفاً لسـماع صوتهـا، عدنـان أحـب زينـب، نعـم عدنـان أحـب زينـب، في مـرة سـألته زينـب: قـل لي مـن الأخـر مـاذا تريـد؟ أجابهـا عدنـان بفطرتـه وبتلقائيتـه وبعفويـة جميلـة: أريـدك بجـواري طـوال

الحياة.

من فرط حبه لزينب كان يراقبها في الخفاء وهي ذاهبة إلى الجامعة، راقبها هي وزميلها جعفر يصوران المحاضرات بمول الزعفران، غضب عدنان وهو يراها تلبي دعوة زميلها لتجلس بجواره بكافيه زهرة الجامعة بالمول، ضاق صدره وهو يرى جعفر يمسك يدها ثم ما يلبث أن يضمها إليه، لم يتمالك عدنان نفسه واقتحم خلوتهما وزعق فيها بأعلى صوته قائلاً: ماذا تفعلين هنا، هل هذا شيء يليق؟.

بكت زينب لما رأته وترجته بألا يفضح أمرها، قال عدنان لجعفر: أنا بمقام أخيها الأكبر إن كنت تريدها في الحلال فتعالى إلى البيت. أما إن كنت تنوي قضاء وقت فراغ معها فهذا شيء غير مقبول.

في صيف العام التالي خطب جعفر زينب وحضر عدنان حفلة الخطوبة التي تكفل بها من الألف للياء، هو في قرارة نفسه لم يكن يتوقع أن زينب تكون له وليس من الشهامة أن يقف حائلاً بينها وبين زواجها.

قالت له زينب: بأنه لا غبار عليه وأنه إنسان جميل ولكن منطق الافتراضية رجح جعفر عليه.

كان يجلس في مؤخرة الصفوف منتحيا جانباً، فرح لفرحة زينب وجعفر وفجأة جاءت نحوه زينب وجعفر وخلفهما المدعوون وسماعات الصوت تصدح بأغنية (وطني حبيبي الوطن الأكبر)

قبل جعفر رأس عدنان فضمه عدنان إليه وأمسك مكبر الصوت وغنى (يا أحلى اسم في الوجود يا مصر).

وذات مرة قالت له زينب بأن جدتها ستأتي من قرية البهنسا التابعة لمركز بني مزار، للاحتفال بالليلة الختامية لمولد السيدة زينب واستطلعت رأيه إن كان يرغب الذهاب معهم أم لا؟ لم يمانع عدنان ذلك فوافق على الفور.

كانت المرة الأولى التي يزور فيها عدنان مولانا الحسين والسيدة زينب، الآلاف من الوافدين والمحبين من شتى أنحاء البلاد يأتون لزيارة مولد السيدة زينب، كانوا يقطعون مسافة المائة متر في حوالي نصف ساعة من فرط الزحام، الأجسام الملتحمة وخيام الطرق الصوفية وموائد الطعام المُعدة لخدمة الزائرين وإنشاد المداحين وبالأخص الشيخ ياسين التهامي وحلقات الذكر والأوراد، كل ذلك استهوى عدنان، مكث بجوار زينب وجدتها في إحدى الخيام التي يشرف عليها الشيخ عبد الدايم شيخ إحدى الطرق الصوفية، قدم لهم خدمة الطريقة من رغيف محشو بالأرز وقطعة لحم أعقبه طبق أرز باللبن ثم احتسوا الشاي.

تعرف عدنان على الشيخ عبد الدايم الذي قال له: إن كان يحب هذا فهم يتلاقون عقب صلاة المغرب كل يوم خميس بمسجد مولانا الحسين.

(١٢)
(الشيخ عبد الدايم)

حار فكر عدنان أيذهب إلى الشيخ عبد الدايم ويلبي دعوته كما وعده أم يكتفي بذلك القدر من معرفته. سرعان ما حسم أمره وقرر بأن يذهب إلى خان الخليلي لشراء سلسلة ذهبية لوالدته بمناسبة عيد ميلادها وفي نفس الوقت يذهب إلى مسجد سيد الشهداء الحسين لرؤية الشيخ عبد الدايم.

ذهب عدنان مبكراً بعد صلاة العصر وآثر أن يتجول في المنطقة التي يفوح منها عبق الماضي وأصالته، مشى على مهل في شارع المُعز ريثما يأخذ وقته في مشاهدة التحف المعمارية التي تعود إلى العصر الفاطمي والمملوكي.

الأقواس والقباب والباحات الداخلية والأواوين والمشربيات والشادروانات والمقرنصات والزخارف والمآذن والعقود المزخرفة والتثمينات والعرائس والآرابيسك كل هذا أوحى له بالبراح وأذهل عينيه.

أول ما وطأت قدمه عتبة مسجد الحسين أحس بجو من

الروحانيات أبهجت نفسه، شعر براحة تسري في جسده مما جعله يرقد مستسلماً لها ممداً رجليه تحت أحد الأعمدة.

حضر الشيخ عبد الدايم المسجد وذكره عدنان بنفسه فرحب به مبتهجا بلقائه ، وبعد صلاة المغرب قدم الكثيرون من مريدي الشيخ عبد الدايم وأحاطوه. أعطاه الشيخ عبد الدايم كتيبا صغيرا به ورد الطريقة يحفظه كل من في الحلقة.

تبدأ حلقة الذكر بقراءة القرآن وإنشاد بعض الابتهالات والأدعية ثم يعقب ذلك قراءة الورد، يبدأ الورد «فاعلم أنه لا إله إلا الله» إلى أن ينتهي ثم يرددون (يا فتاح يا عليم المدد يا رسول الله ١٠٠ مرة، بسم الله الرحمن الرحيم ١٠٠ مرة، لا إله إلا الله ١٠٠ مرة، يا دايم ٣٠٠ مرة، اللهم صلِ على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ١٠٠ مرة).

انتهت حلقة الذكر وصلوا العشاء. صافح عدنان الشيخ عبد الدايم مودعًا. قال له الشيخ عبد الدايم مستطلعاً رأيه فيما هم فيه، أجابه عدنان بأن ذلك شيء طيب ويطمئن القلب ويسعده من الهم.

في الخميس التالي وجد عدنان نفسه تقوده لا إرادياً إلى مسجد الحسين، تعددت المرات وتعمقت العلاقة بين الشيخ عبد الدايم وعدنان، أخذه الشيخ عبد الدايم إلى الحضرة بخلوته بالدراسة، الخلوة مجاورة لمدافن الغفير ، مبنية من الطوب الحجري ومسقوفة بالخشب الحبيبي الذي يعلوه جلد من إطر العربات

الممزقة لحمايته من المطر وأرضياتها من حصر العدبان، دهش عدنان أبلغ دهشة فمرتادو الحضرة منهم لواءات شرطة ورجال أعمال يملكون محلات ذهب ورجال قضاء بخلاف ما كان يعتقد بأن يجدهم من المعدومين والشحاذين والمجاذيب.

يقف المريدون بشكل حلقات ويقف الشيخ عبد الدايم في وسطها ويستعد الجميع بتركيز تام لاستحضار معاني ذكر الحضرة ورابطة روحية مع الشيخ، وفي حلقات ذكر الحضرة عدة أنواع من الحركات، بحسب فقرات الذكر، من بداية ورد (الله استغفر الله دائم استغفر الله) إلى نهائية ورد (يا هادي أنت الهادي ليس الهادي إلا الله) يقول المريد واقفاً مغمض العين، ويردد ألفاظ الورد وهو يحرك رأسه بأن يسحبه من منطقة أسفل الحجاب الحاجز للبطن ثم يرفعها نحو الكتف الأيمن، ومن ثم سحبه يساراً نحو القلب.

دعا الشيخ عبد الدايم (اللهم يا حي يا قيوم... الخ) ردد الجميع (يا الله) وهم ينحنون إجلالاً وتعظيماً لله سبحانه وتعالى خافضين اليد اليمنى وفاتحين كفها بهيئة السؤال، ثم يعتدلون رافعين الأيادي مشيرين بها إلى القلب، وكأن أحدهم يغترف شيئاً ليضعه في قلبه، ولبس المعرفة الربانية راجين من المولى تعالى أن يحيي بذلك قلوبهم وأرواحهم فتبقي خالدة بنوره تعالى أبدًا دائماً، وهكذا لعدة مرات حتى أشار إليهم الشيخ عبد الدايم بالانتقال إلى الأذكار التالية وهي (يا الله دائم الله.. يا دائم الله

دائـم) ينتقـل الجميـع إلى الحركـة الأولى عنـد الانتقـال إلى الأذكار التالية (اللـه اللـه، اللـه هـو هـو، هـو اللـه هـو) وتلفـظ كلمـة (هـو) بصـوت مرتفـع. وكلتـا الكلمتـين الأخيرتـين يكـون محـل ضربهـما عـلى القلـب، وكأن الذاكـر يحـرك رأسـه الضاربـة كالمطرقـة عـلى القلـب وبصوتـه المرتفـع يريـد أن يثبـت لفـظ الجلالـة المباركـة والضمـير الـدال عليـه في قلبـه تثبيتـاً قويـاً بمـا تشـتمل عليـه هاتـين اللفظتـين مـن أنـوار وأسرار وخـواص وبـركات روحيـة لا حـصر لهـا.

ثـم يعـودون ذاكريـن إلى الانحنـاء تذلـلاً وخشـوعاً للحـضرة الإلهيـة، بنفـس الطريقـة السـابقة وهـم يـرددون ورد (يـا كريـم) بصـوت منخفـض، وكأن الذاكـر يسـتجدي ربـه مـا سـأله ومـا يريـد.

ثـم نـادى الشـيخ عبـد الدايـم (يـا اللـه) ورد الجميـع (حـي اللـه، اللـه) وهـم يحركـون رءوسـهم انتقـل الشـيخ عبـد الدايـم إلى ورد آخـر وهـو قـراءة سـورة (الإخـلاص) ثـلاث مـرات جماعيـة وبصـوت جهـوري، هـذا الـورد غـير مصحـوب بـأي حركـة، ثـم تسـكن الجمـوع ويسـود الهـدوء، تقـدم الشـيخ عبـد الدايـم طالبًـا المـدد ويقـوم المريـدون بالانحنـاء تدريجيـاً مـع صيغـة الاسـتمداد تعظيـماً للمـولى، يبـدأ الاسـتمداد بحمـد اللـه والثنـاء عليـه وطلـب المـدد منـه جـلا وعـلا، ثـم ينـادي الجميـع بصـوت مرتفـع (مـدد) وهـم يرفعـون رءوسـهم، فمنهـم مـن يرفـع كفـه الأيمـن ليمسـح قلبـه بهـا، ومـن يمسـح بهـا صـدره ومنهـم مـن يمسـح بهـا وجهـه. انتهـت الحـضرة وقبّـل المريـدون

والذاكـرون بعضهـم بعضًـا وانصرفـوا إلى شـأنهم.

***

جـاء عدنـان إلى مسـكنه شـعثاً وغـبراً ومصفـر الوجـه متأخـراً. سـأله الشـيخ شربتـلي عـن سـبب التأخـير. صارحـه عدنـان بمـا كان فيـه. انزعـج والـده انزعاجـاً بالغـاً وراح يقـول لـه مغتـماً بـأن هـؤلاء الصوفيـة مـا هـم إلا مقبلـو عتبـات وعبـاد قبـور ومتوسـلو أضرحـة، يدخلـون في الديـن أشـياء مـا أنـزل اللـه بهـا مـن سـلطان تُعـد مـن شرار الأمـور نهـى اللـه عنهـا، وأنـه في مـرة شـاهدهم وهـم يرقصـون بطريقـة بهلوانيـة وكان منظرهـم مقـززاً ريقهـم يهطـل مـن أفواههـم ويتـدلى عـلى صدورهـم في منظـر تشـمئز منـه الأنفـس، يقولـون كلامـا غـير مفهـوم ولا يليـق مـع لفـظ جلالـة وعظمـة اللـه.

قـال لـه عدنـان: هـؤلاء يـا والـدي أنـاس طيبـون عندمـا أكـون معهـم أحـس بألفـة ومـودة، حتـى أنهـم وهـم يوزعـون أصابـع الملـبن يعطـوني أصبعـا زيـادة إكرامـاً منهـم لي، ثـم أبـدى عدنـان تعجبـه وقـال: كيـف تقـول هـذا وهـم لا يخلـو قـول لهـم إلا ولفـظ الجلالـة فيـه، شـهقاتهم وزفراتهـم تشـدو باللـه، لسـانهم مرطـب باللـه، أنـت يـا والـدي أسـأت الفهـم وهـذا يرجـع إلى طبيعـة نشـأتك الوهابيـة. وهنـا وفجـأة صفعـه الشـيخ شربتـلي صفعـة قويـة عـلى وجهـه، صرخـت أذنـه عـلى إثرهـا والتهبـت عضـلات وجهـه مـن شـدة لطمتهـا، وأحـس بدوخـة في رأسـه وانهمـرت دموعـه. ، وفي المسـاء اعتـذر لـه والـده وقبـل جبينـه وضمـه

إليـه وقـال: سـنكتفي بذلـك القـدر مـن الحديـث وفي المملكـة يبقـى لنـا كلام نكملـه.

(١٣)

(الشيخ محمد عبد الوهاب)

بعد وصولهم إلى السعودية أحضر الشيخ شربتلي لعدنان معلما، شيخا ضريرا في عقده السابع تزين ذقنه لحية كثة بيضاء وبعض الشعيرات المتناثرة على خده، ينطق حروف الكلمات بصعوبة حتى إنه يتساقط بعضها منه فسرعان ما يعيدها إلى موضعها الصحيح، قدمه الشيخ شربتلي لعدنان هامساً في أذنه بأنه شيخ جليل ممن هم مشهود لهم بالتفقه والورع، فهو لا يخشى في الله لومة لائم، سيصحح له بعض المفاهيم الملتبسة من خلال أربعة دروس عقب صلاة العصر من كل يوم اثنين.

تورك الشيخ المعلم وجلس عدنان قبالته، استعاذ الشيخ من الشيطان الرجيم وحمد الله على فضله الكريم ودعاه بأن يجنبنا شر الفتن والموبقات.

أول درس كان نبذة تعريفية عن الشيخ محمد عبد الوهاب الذي ولد في بيت معروف بالعلم في مدينة العينية في سنة (١١١٥هـ - ١٧٠٣م) فكان جده سليمان بن علي بن مشرف من أشهر العلماء

في عـصره وكان عمـه إبراهيـم بـن سـليمان عالمـاً جليـلاً أيضـاً وابنـه عبـد الرحمـن فقيهـاً وأديبـاً، كان محمـد عبـد الوهـاب منـذ نعومـة أظفـاره متفوقـاً في الـذكاء وقـوة الحفـظ قـد حفـظ القـرآن الكريـم وعمـره أقـل مـن عـشر سـنوات، ثـم درس كتـب الفقـه الحنبـلي وطالـع كتـب الحديـث والتفسـير بكـثرة في صغـره، وقـد أعجـب والـده بـذكاء ولـده الطامـح وموهبتـه حتـى كان يقدمـه للإمامـة في صغـره، تـزوج في صغـره ثـم أدى فريضـة الحـج وأقـام شـهرين في المدينـة ونسـخ المذكـرات والكتـب العلميـة.

وفي الـدرس الثـاني أتى الشيخ متأخـراً ولم يجـد حرجاً أن يعتـذر لعدنان عـن ذلـك، رشـف بعـض الرشـفات مـن فنجـان القهـوة، وقـال بـأن موضـوع هـذه الحصـة هـو عـن دعـوة الشـيخ محمـد عبـد الوهـاب.

بـدأ في حديثـه حيـث أنـه كان الإمـام مولعـاً بالأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر، دعـا إلى رد البـدع والتوجـه إلى اللـه وحـده لا إلى المشـايخ والأوليـاء والأضرحـة، ولا بوسـاطة توسـل ولا شـفاعة، فزيـارة القبـور إن كانـت فللعظـة والاعتبـار لا للتوسـل والاستشـفاع، فهـم لا يملكـون شـيئاً بجانـب اللـه وقوانينـه الثابتـة، أهـم مسـألة شـغلت ذهنـه في درسـه ورحلاتـه مسـألة التوحيـد التـي هـي عـماد الديـن، التوحيـد المخلـص مـن كل شـائبة إلى أن يـشرك مـع اللـه كثـيراً مـن خلقـه، فهـؤلاء الأوليـاء يحـج إليهـم وتقـدم لهـم النـذور، ويعتقـدون أنهـم قـادرون عـلى النفع والـضر وصـاروا ينـادون ويدعـون البـدوي والرفاعـي في مـصر وعبـد القـادر الجيـلاني في العـراق والهنـد وابـن عبـاس في مكـة والطائـف

وابـن علـول في اليمـن.

بـل وأسـفا لم يكتـف المسـلمون بذلـك، بـل أشركـوا مـع اللـه حتـى النبـات والجـماد فهـؤلاء بلـدة (منفوخـة) باليمامـة يعتقـدون في نخلـة هنـاك أن لهـا قـدرة عجيبـة، مـن قصدهـا مـن العوانـس تزوجـت لعامهـا وكانـوا يقولـون (يـا فحـل الفحـول ارزقنـا عريـس قبـل الحـول) وهـذا الغـار في الدرعيـة يحـج إليـه النـاس للتـبرك وفي كل بلـدة مـن البـلاد الإسـلامية مثـل هـذا، ففـي مـصر شـجرة الحنفـي ونعـل الكلـش وبوابـة المتـولي، وفي كل قطـر حجـر وشـجر فكيـف يخلـص التوحيـد مـن كل هـذه العقائـد.

وفي الـدرس التـالي شرح المعلـم مـا روجـه الكثـيرون مـن افـتراءات وأكاذيـب ضـد الإمـام محمـد عبـد الوهـاب ومـن هـذه الاتهامـات أنـه وأتباعـه يكفـرون جميـع أهـل القبلـة ويسـتبيحون قتـل المسـلمين، أنكـر الإمـام محمـد عبـد الوهـاب إنـكاراً واضحـاً وصريحـاً وقـال قولتـه المشـهورة (إذا كنـا لا نكفـر مـن عبـد الصنـم الـذي عـلى قبـة عبـد القـادر والصنـم الـذي عـلى قـبر أحمـد البـدوي وأمثالهـما لأجـل جهلهم وعـدم مـن بينهـم فكيـف نكفـر مـن لم يـشرك باللـه أو لم يهاجـر إلينـا ولم يكفـر... سـبحانك هـذا بهتـان عظيـم).

وفي آخـر جلسـتين أحـس عدنـان بألفـة تجـاه الشـيخ الـذي قـال لـه إن والـده حـكى لـه مـا جـرى لـه في مـصر مـن مخالطتـه للصوفيـة وانغماسـه في حلقـات ذكرهـم، مـن رقـص وغنـاء وتمايـل ذات اليمـين والشـمال ، خـير الـكلام كلام اللـه وخـير الهـدى هـدي محمـد صـلى

الله عليه وسلم وشر الأمور مستحدثاتها وقد أكمل الله الدين لعباده قولاً وعملاً واعتقاداً، قال تعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» والرسول صلى الله عليه وسلم بين هذا الدين بقوله وفعله وتقريره، وصحابته رضي الله عنهم نقلوا عنه صلى الله عليه وسلم ما صدر منه من الأقوال والأفعال والإقرار، فالدين كامل من جهة قواعده ومن جهة بيانه ونقله، والذكر نوع من أنواع العبادات والعبادات مبنية على التوقيف، ومن خصص شيئاً من العبادات وحدد له وقتاً معيناً أو كيفية خاصة لأدائه فهو مطالب بالدليل، فهذا الأمر ليس له أصل شرعي يعتمد عليه، أما في مسألة ذكر الله في الألفاظ المفردة فإنه لم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الله بالأسماء المفردة .. الله الله، حي حي، عليم عليم، مدد مدد...الخ. كما يفعل بعض مبتدعة الصوفية وأشد من ذلك قول بعضه في ذكر الله: هو هو أو: لا لا أو: آه آه آه أو: ها ها أو: هو هو، النبي صلى الله عليه وسلم لم يترك مجالاً من مجالات الذكر ولا موقعاً من المواقع التي يؤمر فيها بذكر معين، إلا وبين صيغة الذكر المطلوب في ذلك الظرف، وقد عني الأئمة بتجميع ذلك وتدوينه كما فعل النووي في الأذكار وابن تيمية في الكلم الطيب، وبعد ذلك ساق الشيخ فتوى شيخ الإسلام ابن تيمية في مسألة الذكر بالاسم المفرد (وأما الاسم المفرد المظهر أو المضمر: فليس بكلام تام، ولا جملة مفيدة ولا يتعلق به إيمان ولا كُفر ولا أمر ولا نهي ولا يذكر أحد من سلف الأمة، ولا شرع

والتكبير والتحميد والتمجيد مع اختلاف بسيط في الترتيب وطريقة الأداء.

ساق الحاج عبد الدايم الإشارات القرآنية والنبوية المطهرة إلى جواز الحركة في الذكر، ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ» هذا النص القرآني الكريم يدل على جواز ذكر الله تعالى في حالة القيام والقعود وعلى الجنب، كما يشير إلى جواز أداء الذكر مقروناً بهذه الأنواع الثلاث من الحركات على التتابع، أي يذكر قائماً ثم قاعداً ثم على جنبه، وقال تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ» قال: ابن كثير في تفسيره (يخبر الله عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له المخلوقات بأسرها، جمادها وحيواناتها، ومكلفيها من الإنس والجن والملائكة، وأخبر أن كل ما له ظلال يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال، أي بكرة وعشية، فإنه ساجد في ظل الله تعالى)، أما الإشارة النبوية كان أهل الحبشة يرقصون بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقولون بكلام لهم: «محمد عبد صالح» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ماذا يقولون؟» فقيل: إنهم يقولون «محمد عبد صالح» فلما رآهم صلى الله عليه وسلم في تلك الحالة لم ينكر عليهم وأقرهم على ذلك، والمعلوم بأن الأحكام الشرعية تؤخذ من قوله وفعله وتقريره، وأن الاهتزاز بالذكر جائز، ولا يسمى رقصاً، لأنه ينشط الجسم للذاكر

ويساعده على حضور القلب مع الله تعالى.

وقال الحاج عبد الدايم رداً على ما سمعه من عدنان بأن الاعتراض على الصوفية عنايتهم بالاسم المفرد، ولهجهم به، زعماً بأن الذكر به بدعة، وأنه لا يشمل على جملة مفيدة مثل الأذكار الواردة نحو (لا إله إلا الله، والحمد لله، والله اكبر)، إلى غير ذلك، فهذا مردود عليه بدليل قوله: «وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً».

« وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ « أي ادعه بأسمائه الحسنى ليحصل بك محمود العافية وقال تعالى أيضاً: «وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً»، وقد ورد في الحديث الشريف أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله)، فهذا اسم مفرد ورد ذكره مكرراً في الحديث.

وأضاف الحاج عبد الدايم وفي رواية أخرى (عن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة على أحد يقول: «الله الله») قال علي القاري في شرح هذا الحديث (أي لا يذكر الله فلا يبقى حكمه في بقاء الناس، ومن هذا يعرف أن بقاء العالم ببركة العلماء العاملين، والعباد الصالحين وعموم المؤمنين) وهو المراد بما قال الطيب رحمه الله: معنى حتى لا يقال (الله الله) حتى لا يذكر اسم الله ولا يُعبد. وأما من أنكر على الصوفية عنايتهم بالاسم المفرد وذكرهم به إلى غير ذلك فهو قول مردود كما قال الإمام سيد عبد الله ابن الصديق

العماري: مجيباً من قال بأن الذكر بالاسم المفرد (الله): هذه بدعة لم تنقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا عن أحد السلف قال: هذا مردود من عدة وجوه أولها: ما ورد في صحيح مسلم من قوله الصلاة والسلام: لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض (الله الله) فهذا الحديث شاهد لذكره وتكراره. ثانيها: أن لا نسلم أن الذكر لا يكون جملة فقد قال الله تعالى: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا». ثالثها: إننا إن أسلمنا أن الذكر إنما يكون جملة فقول الذاكر (الله الله) جملة تقريراً إذ معناه أي يا الله أو الله أعظم أو الله اكبر.

وأما قولهم الذكر بالاسم المفرد لا يؤلف جملة تامة مفيدة فالجواب على ذلك أن الذاكر لهذا الاسم المفرد لا يكلم مخلوقاً، فلا يشترط أن يكون بكلامه تاماً مفيداً، لأنه يذكر الله تعالى الذي هو عالم بنفسه، مطلع على قلبه.

نظر الشيخ عبد الدايم إلى عدنان ملياً، حانياً، كأنه يسمع ما يخفي عنه عدنان، وكأنه يعرف ما يجيش في صدره، كأنه يعلم بأن عدنان يشتهي النساء ولا يقدر على مقاومة مفاتنهم، وكثيراً ما يختلس إليهم النظر وفي آخر الليل يجردهم من ملابسهم و...

أشاح الشيخ بيده في الهواء معبراً عن استنكاره ومتعجباً عما فيه عدنان فقال له: اتقي المحرمات تسلم دنياك، في الجسد مضغة إن صحت صح الجسد كله وهي القلب، فإن سلم قلبك لله فسوف يسلم اللسان ويكف عن الغيبة وتكف الأيدي عن السرقة وفعل

الحرام، والعين على النظر الزاني، ثم قال له: ردد خلفي (الله الله الله)، ردد عدنان خلفه (الله الله الله) قال له الشيخ احفظ الله.. الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، فالله هو سلطان الأسماء وهو الاسم الأعظم ولا يزال المريد يذكره بلسانه ويهتز به حتى يمتزج بلحمه ودمه، وتسري أنواره في كلياته وجزئياته، فينتقل الذكر إلى القلب ثم إلى الروح ثم إلى السر، فحينئذ يخرس اللسان ويصل المرء إلى الشهود والأعيان.

أعطى الحاج أمرا لعدنان بأن يضغط على لسانه ضغطة خفيفة ثم يقول من أعماق نفسه (الله الله الله)، فاسم الله المفرد لا يحتاج إلى تحريك اللسان للنطق فهو ينطقه الطفل أو ما يلج الحياة «آه آه» والمريض يئن به راجياً الشفاء «آه آه». أو لم يقل الله: «وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ».

تدرب عدنان على ذلك في نفسه بحيث ينطق في كل شهقة نفس كاتماً ومن قلبه (الله الله) وفي كل زفرة نفس (الله الله)، أضحى قلب عدنان نابضاً (الله الله)، غدا الله يملكه في حركاته وسكناته وفي يقظته وفي غفلته، تساوت عنده الأشياء، الفقر والغنى، المرض والعافية، القبح والجمال.

وأثناء رجوعه من الخلوة اصطدم بسيدة لم تثر في داخله أي شهوة رغم امتلاكها نهدين منتفختين وعينين واسعتين وشفتين مكتظتين.

(١٥)
(النفـق)

لم أتوقـع أن أرى ممـدوح بهـذه الهيئـة الجميلـة، كنـت أعتقـد أن مشـقة العمـل في رفـح سـتظهر تجاعيـد وجهـه وشـقوقا في يـده وذبـولا في عينيـه وترهـلا في جسـده، ضحكتـه الحلـوة ونظراتـه البراقـة وصحتـه الجيـدة أفرحتنـي كثـيراً.

ملابسـه الفاخـرة تنبـئ بأنهـا مصنوعـة في الخـارج وحـذاؤه اللامـع المعمـول مـن الجلـد الطبيعـي يـشي بأنـه قـادم عـن طريـق التهريـب مـن الجانـب الآخـر مـن رفـح، سـاورني الشـك بـأن يكـون ممـدوح قـد غـرروا بـه واشـتغل في زراعـة نبـات البانجـو مـع عربـان سـيناء واقتـادوه معهـم، آثـرت أن أؤجـل سـؤالي إلى مـا بعـد تناولنـا العشـاء.

قـال لي ممـدوح: انضممـت إلى فريـق عمـل الشـيخ سـالم بالحفـر في نفـق أبـو جنـدل، سـمي النفـق بذلـك نسـبة إلى بيـت الشـيخ أبـو جنـدل الـذي يبـدأ منـه النفـق، أول مـرة رأيـت النفـق مـن خـلال فتحة محفـورة أسـفل أريكـة موجـودة في مضيفـة الشـيخ أبـو جنـدل، كنـا نسـتيقظ قبيـل الفجـر بقليـل نتسـلل اثنـين اثنـين إلى المسـجد الملاصـق

لبيت أبو جندل ومنه نتسلل فردا فرداً إلى مضيفته، وننزل داخل النفق عن طريق سلم من الحبل درجاته من الخشب، يبلغ عمق النفق ستة أمتار وارتفاعه ثلاثة أمتار في عرض ثلاثة أمتار بحيث يسع عربة أجرة محملة بالأسمنت والأدوية والبوتاجاز والوقود والدقيق، وكل ما يحتاجه الجانب الفلسطيني.

طابور من الفتيان كل يسلم الآخر المقطف حتى يتناوله آخر فتى فيفرغه في عربة صغيرة تسحب عن طريق ونش صغير مكتوم صوته فتفرغ العربة في مزرعة الشيخ أبو جندل الكائنة خلف بيته.

في بداية العمل كنت في مؤخرة الطابور ومع الوقت رحت أتسلل وأتقدم حتى غدوت خلف عمي متولي بالقرب من أول طابور الفعال الفلسطينيين، في أول الوقت كنت أسمع أنفاسهم وأحس بأنينهم ومع الوقت أضحيت أراهم رأى العين، لم يكونوا بالكثرة مثلنا، يعدون على أصابع الأيدي الواحدة، يتصدرهم الشيخ تهامي ومن خلفه بعض الصبية يجرون عربة صغيرة تجري على قضيبين حديديين محمل فيها ما تم حفره، كان بين الحين والآخر يشير لي فتى مازحاً معي، مرة يلوح بعلامة النصر، ومرة يدعوني لاحتساء الشاي، ومرة أخرى يحرك حاجبيه بطريقة كوميدية، كان ينظر إلي زميله الآخر بالجانب الفلسطيني ضاحكاً عليه ومشيراً لي ساخراً منه بأنه فاقد لعقله.

في داخل النفق كنت أرى أنفاقا أخرى من خلال فتحات التهوية

التـي تظهـر أرجـل الفعـال. الأنفـاق في رفـح متشـابكة بطريقـة عنكبوتيـة. النفـق مصمـم لـه إضـاءة وتهويـة وأرضيتـه تـم تصنيـع مـادة أسـفلتية خصيصـاً لهـا بحيـث تتحمـل شـدة الحـرارة وسـخونة إطـارات السـيارات. جوانـب النفـق مبلطـة بمـادة جلديـة غـير قابلـة للخـدش والاشـتعال وقويـة ضـد الصدمـات يقـال إنـه تـم تصميمهـا وابتكارهـا مـن قبـل المهندسـين الفلسـطينيين.

أذهلنـي ممـدوح وأنـا أرى العـرق يتفصـد مـن وجهـه حتـى راق لي أن أسـأله:-

- ألا تحس بتعب وزهق وضيق وأنت في داخل النفق.

أجابني ممدوح بحزم:-

- إنـه لـشيء غريـب يـا أيمـن، عتمـة الظـلام في داخـل النفـق تشـيع في داخـلي طاقـات مـن النـور، وجـع ظهـري مـن فـرط انحنـائي يرفـع في نفـسي علـوًا وكرامـة، ضيـق صـدري وانحبـاس أنفـاسي مـن قلـة الأكسـجين يبعـث في داخـلي منافـذ جديـدة للحيـاة.

توقـف العمـل قليـلاً لحـين إشـعار آخـر بعدمـا شـوهد الطـيران الإسرائيـلي يحلـق عـن كثـب بالقـرب مـن ممـر النفـق.

(١٦)
(مستخرج من شهادة الميلاد)

في صباح اليوم، اقترح عليّ ممدوح بأن نروح عن أنفسنا ونقضي نهار هذا اليوم في القلعة فهو شغوف بزيارتها وتفقد معالمها.

ونحن في طريقنا سأل ممدوح سائق السيارة الأجرة عن شارع باب الوداع، قال له السائق إن شارع باب الوداع في خلفية القلعة وليس هو بالشارع الذي يسلكه زائرو القلعة. أصر ممدوح على السائق أن يوصلنا إلى الشارع، تأسف له السائق فالشارع عبارة عن مطلع في نهايته دار المحفوظات، يصعب على السيارة صعوده سيما أن سيارته موتورها متهالك.

يا له من مطلع صعب، أرجلنا تكاد تنزلق من فرط تآكل أرضيته المرصوفة من الطوب الحجري القديم.

استرقت النظر إلى ممدوح فأدهشني ما رأيت على وجهه من قلق جم ينتاب جسده وعرق يتفصد من وجهه يغرق ياقة قميصه، وكلما اقتربنا من دار المحفوظات وظهرت يافطته (دار المحفوظات والميكروفيلم) يزداد القلق ويعم الاضطراب.

الدار مصممة بطريقة حديثة بخلاف ما كنت أظن، صف متراص من النوافذ الصغيرة على كل نافذة لافتة تبين عملها وأمام كل نافذة صفوف من المقاعد يرتادها جموع المنتظرين، شاشة تظهر رقم مَن عليه الدور الذي يأخذه طالب الخدمة من موظف الاستقبال، بجوار كل موظف جهاز كمبيوتر وطابعة وخاتم شعار الجمهورية عند مدير عام الدار.

عندما أتى دورنا سأل الموظف ممدوح عن أي خدمة يريد، أجابه بأنه يريد استخراج شهادة ميلاد لجده الخامس خيري الإتربي، قال له الموظف إن هذا الأمر في متناول الجميع وعليه أن يعطيه بطاقة الرقم القومي الخاص به، نظر موظف الدار في بطاقة الرقم القومي فوجد اسم ممدوح ضاحي وزيري شاكر فتح الله زناتي، تعجب الموظف فالموجود بالبطاقة جده الخامس فتح الله زناتي بخلاف ما يريد استخراجه، جده الخامس خيري الإتربي غير موجود بالبطاقة، قال له الموظف متعجباً: أي جد هذا تريد البحث عنه؟.

صارح ممدوح الموظف قائلاً بأنه حدث قديماً لبس وهو الذي أحدث هذا الاختلاف، حكى للموظف بإيجاز حكاية جده، نظر إليه الموظف بتفحص فرأى في وجه ممدوح ضيقا شديدا وتلعثما وتهدجا في صوته. أحس الموظف بأن ممدوح يخدعه فاعتذر له بأدب، راح ممدوح يلح على الموظف ويترجاه بالعزيز والغالي بأن يلبي له طلبه، أشفق عليه الموظف وهو يرى الدموع سيلا لا

يتوقف في وجهه، عاد واعتذر له الموظف ثانية متعللاً بأنه من شروط استخراج مستخرج من شهادة الميلاد أن يكون مقدم الطلب ذا قرابة عصب تظهر ذلك في بطاقته الشخصية، أو حل آخر بأن يحضر بطاقة جده المتوفي، هذا الأمر لا ناقة له ولا جمل ورؤساؤه مشددون عليه في ذلك، فبعض الحقراء الخبثاء يستخرجون شهادات يقولون إن أجدادهم من مالطة وصقلية واليونان، وكانوا يملكون أراضي قبل رحيلهم، وبهذه الشهادات يرفعون دعاوي بمجلس الدولة يأخذون عن طريقها أراضي محاذية للمجرى الملاحي لقناة السويس بعدما وضعوا أيديهم عليها.

آثرت أن نقعد على مقهى مواجه لمدرسة سيدي علي ومحاذياً لدار المحفوظات، طلبت من نادل المقهى إحضار عصير ليمون نرطب به عن أنفسنا ونريح أعصابنا، تقرب إلينا النادل بعدما سمع عتابي وتأنيبي لممدوح، بأن هذا الأمر لا جدوى ولا فائدة منه فالميراث وزع منذ سبعين عاماً وورثته أجيال وأجيال متعاقبة فهو يبحث الآن عن إبرة خياطة ملقاة في كومة من القش.

همس لنا النادل بأنه يستطيع أن يحضر ما نحتاجه بطريقته الخاصة وبدون هذا الموظف المعقد والروتين الذي رأى ممدوح يترجاه في الدار وهو يقدم القهوة للموظف المجاور له، أعطاه ممدوح ما يريده من نقود وبعد ساعتين أتى وأشار لممدوح عن بعد، فذهب ممدوح إليه فأخرج شهادة الميلاد التي كان يخبئها أسفل قميصه وطلب زيادة عن ذلك منه الحلاوة.

فرح ممدوح لذلك وراح يحملق في شهادة الميلاد والبهجة تزهو في وجهه وقال: الآن باستطاعتنا أن نروح عن أنفسنا.

نظرت تحتي فتراءت لي القاهرة بمعالمها وآثارها ونيلها ومبانيها، فرد ممدوح شهادة الميلاد ورفرفت في الهواء الطلق ثم أعاد تثبيتها ثم طلب مني إمساكها بقوة وتثبيتها أمام الكاميرا، قرب زوم الكاميرا على شهادة الميلاد حتى ظهر اسم جده خيري الإتربي بوضوح، التقط صورة، ثم قام هو بإمساك الشهادة وطلب مني التقاط صورة تظهر اسم جده وتظهره مبتسماً وفرحاً. وقال إنه يود عمل بوستر عملاق يعلقه في مدخل العركي ليرى القاصي والداني حقيقة أصله وأن جده الحقيقي العمدة خيري الإتربي وليس فتح الله زناتي الحلبي.

قال لي ممدوح: يا أيمن بقدر فرحتي باستخراج شهادة الميلاد بقدر فخري بزوال إحساس نقص معنوي كان يكدر عليّ حياتي.

(١٧)

(فندق أمية)

توطـدت علاقتـي بعدنـان فهـو شـخصية بسـيطة وودودة، متسـامح، متفاهـم، حليـم وواضـح، مرهـف الحـس ومحـب للحيـاة، ذو نفـس طيبـة لا يضمـر أي ضغينـة لأي أحـد. فعندمـا يغضـب يفـرغ مـا بداخلـه ثـم مـا يلبـث أن يعـود إلى هدوئـه ولا يجـد غضاضـة في أن يعتـذر لـو أحـس بأنـه أخطـأ في حـق أحـد.

أنـا مـن ناحيتـي أسـميته (الخبـزة) نعـم فهـي خبـزة عيـشي في الحيـاة التـي وهبنـا اللـه إياهـا وواجـبٌ عـليّ الحفـاظ عليهـا، حينـما يكـون عدنـان غاضبـاً ومنفعـلاً أنـا ألـيّن وأهـدّئ، فخبـزتي حاميـة وسـاخنة وعـليّ الآن تهويتهـا حتـى لا تتعجـن.

أثنـى عـليّ عدنـان وشـكر إدارة المكتـب فهـم قدمـوا لـه جوهـرة نفيسـة وعليـه الآن أن يحفظهـا في مـكان آمـن، عـرض عليهـم بـأن يسـدد قيمـة فاتـورة إقامتـي بفنـدق أميـة الكائـن بميـدان الإسـعاف والمواجـه لـدار القضـاء العـالي والقريـب مـن فنـدق هيلتـون رمسـيس كي يتيـسر لي الذهـاب لعدنـان وتلبيـة طلبـه في أقـرب وقـت.

لملمـت متعلقـاتي مـن حـي الشرابيـة وذهبـت إلى فنـدق أميـة ومكثـت بغرفـة ملاصقـة لغرفـة الأسـتاذ عبـد العزيـز، كنـت عندمـا أشـعر بالضيـق أروح عـن نفسي بـأن أمـشي بشـارع طلعـت حـرب.

في فنـدق أميـة تعرفـت عـلى الأسـتاذ عبـد العزيـز عـن قـرب، يالـه مـن إنسـان رائـع، في غايـة الالتـزام تضبـط مواعيـده عـلى عقـارب السـاعة يشـبه قضيـب السـكة الحديـد مـن حيـث الاسـتقامة، لا تدخـين، ولا سـهر، ولا تهريـج، تأتيـه ابنتـه وفـاء كل يـوم جمعـة تـزوره هـي وأسرتـه، أمـا ابنـه الطبيـب ماهـر فيأتيـه كل يـوم يطمـئن عـلى صحتـه، يختلـس النظـر إليـه بـين الحـين والآخـر، تظهـر فرحتـه عندمـا يظهـر عليـه الصحـة الجيـدة ويغتـم عندمـا يـرى والـده نقيـض ذلـك.

سـالي وهـدان لا تجـد حرجـاً في أن تقبلـه عـلى وجنتيـه عندمـا تأتيـه، مـا تلبـث بـأن تفتـح الثلاجـة وتضـع مـا في حقيبتهـا مـن ميـاه معدنيـة وعلـب وعصائـر، تراجـع تاريـخ الصلاحيـة للزبـادي والجـبن وبقيـة المعلبـات.

في يـوم ميـلاد الأسـتاذ عبـد العزيـز أعـدت سـالي لنـا مفاجـأة، فهـي حجـزت لنـا في باخـرة عائمـة لنقـضي سـهرة عـلى ضفـاف النيـل للاحتفاء بالأسـتاذ عبـد العزيـز.

ارتـدت سـالي فسـتانا سـواريه يعـري صدرهـا وسـاقيها، ارتديـت بـزة فاخـرة كنـت أركنهـا للمناسـبات السـعيدة، أمـا الأسـتاذ عبـد العزيـز ارتـدى بـزة زرقـاء مقلمـة تشـبه مـا كنا نشـاهده في أفـلام السـبعينيات.

بـاح الأسـتاذ عبـد العزيـز بمـا في صـدره متذكـراً أيـام عملـه بالجهـاز

المركـزي للمحاسـبات ومـا كان يلاقيـه مـن فسـاد يزكـم الأنـوف، فواتـير شراء وأخــرى بيــع مضروبــة بخــلاف قيمتهــا الحقيقيــة، مناقصــات وعطـاءات تـرسى عـلى أفـراد بأعينهـم مـن المحظوظـين والمحاسـيب، كان كلـما يـدون ذلـك في ملاحظـات كان يفاجـأ بأنها حبيسـة الأدراج، في مـرة كشـف حالـة فسـاد تخـص إحـدى شركات القطـاع العـام بحلـوان بأنهـا بيعـت بأقـل مـن قيمتهـا الدفتريـة التـي تقـدر بأضعـاف مـا بيعـت بـه، فـكان جـزاؤه النقـل لقسـم آخـر، وفي مـرة إذ اعـترض عـلى إجـراء مـزاد علنـي رسـا عطـاؤه عـلى أحـد أقـارب مـن كان عـلى سـدة الحكـم فتـم عرضـه عـلى لجنـة ثلاثيـة مـن شـئون العاملـين أوصـت بإنهـاء علاقتـه بالجهـاز.

المـرأة التـي أحبهـا وأنجـب منهـا تخلـت عنـه وتزوجـت زميـلا لـه بالجهـاز كل همـه تدرجـه الوظيفـي ومرتبـه آخـر كل شـهر.

قطعــت ســالي التورتــة وقدمــت للأســتاذ عبــد العزيــز الجاتــوه ودعتنــي لإطفــاء الشـموع، سـألها الأسـتاذ عبـد العزيـز عـن الجديـد بخصـوص جروبهـا عـلى الفيـس بـوك، أجابتـه بأنهـم اتفقـوا بـأن يقفـوا مـن خلـف الكيبـورد وأن ينزلـوا إلى الشـارع فالأمـر أضحـى غـير مجـد وأنهـم الآن بصـدد الدعـوة لوقفـات احتجاجيـة بالميادـين الحيويـة والمـشي بمسـيرات تطـوف شـوارع القاهـرة تنـدد بمـا يحصـل في مـصر، الحالـة فاقـت كل الحـدود والفسـاد اسـتشرى في كاهـل الوطـن بصـورة مفجعـة.

قبـل أن يودعنـي الأسـتاذ عبـد العزيـز متمنيـاً نومـاً هادئـاً قـال لي

بأنـه يريـد أن يكلمنـي في أمـر مـا وأنـا اتبعـه إلى غرفتـه.

شـكرني الأسـتاذ عبـد العزيـز عـلى رقتـى وذوقـي معـه وفاتحنـي في الأمـر قائـلاً:-

- ما رأيك في سالي؟
- سالي إنسانة جميلة ورائعة
- أنا أعرف ذلك، ما رأيك في الارتباط بسالي؟
- أتزوجها؟!
- نعـم تتزوجهـا، ولم لا؟ هـي جوهـرة نـادرة وأنـت إنسـان محـترم وتسـتحقها.
- أنت فاجأتني والأمر يحتاج وقتًا للتفكير.
- هذا شيء طيب، فكر في الموضوع ورد عليّ فيما بعد.

وأنـا مسـتلق عـلى فـراشي فكـرت في كلام الأسـتاذ عبـد العزيـز، تذكـرت عمتـي تونـس وهـي متوركـة عـلى غسـيل ملابـس جـدي، تذكرتهـا وهـي تدعـك سروال جـدي الداخـلي الـذي يتـدلى إلى أسـفل الركبـة واسـتكه يلامـس خـصره، تذكرتهـا وهـي ترمـي القـش المخلـوط بفضـلات البهائـم لإشـعال الفـرن.

هـل يمكـن لسـالي أن تعيـش وتتعايـش مـع هـذه الحيـاة وهـل أهـل العـركي سـيرضون بـأن يروهـا تمـشي في الطرقـات أمامهـم بملابسـها الغريبـة عليهـم، نفضـت رأسي مـن تلـك الخزعبـلات والخيـالات التـي تغـدو إرهاصـات عـلى أرض الواقـع.

(١٨)
(انعدام القذف)

كثر ذهاب عدنان إلى مركز طبي شهير لأمراض الذكورة صاحبه طبيب مرموق، كان يذهب عدنان في الخفاء في كل يوم جمعة والذي كان يفتح له الطبيب المركز خصيصاً، كنت أبقى بجوار السائق ريثما ينتهي من كشفه، لم تأتني الجرأة حتى أسأله عن أسباب تلك الزيارة.

وفي يوم طلب مني اتباعه وأمر السائق بأن يركن السيارة في الجراج وينصرف، استلقى عدنان على كرسي هزاز بعد ما فتح النافذة المطلة على النيل، قضيت برهة من الوقت ممعناً النظر إلى اللافتات العملاقة الذات الأنوار الزاعقة وإلى السيارات المزدحمة فوق كوبري ٦ أكتوبر، استدرت فرأيت عدنان في حالة يرثى لها، عيناه تبرقان إثر انحباس الدموع فيهما، أشار عدنان لي بالجلوس قبالته، رحت أتقمص دور الطبيب النفساني وسألته عن ما به، أجابني بأنه لا شيء، عاودت أقول له بأن عليه أن يخرج ما هو مكبوت بداخله ويفرغه في الهواء الطلق وبعد ذلك سيهدأ

ويستريح، صمت عدنان ملياً ثم قال:-

- كان فرحي مبهجا ومبهرا في آن واحد، ليلة جميلة قضيناها، رقصت وغنيت، عروسي هي الأخرى فرحت من أعماق نفسها، وأما أمي لم تتمالك نفسها، وهطلت الدموع من فرحتها ووالدي خرج عن وقاره ورقص مجاملة لي، حتى أنهم لم يتركوني وأوصلوني أمام بيتي الجديد، دخلت أمي خلفي وأعطتني قطعة قماش وقالت بأنها ستأتي غداً لترى أثار فض غشاء البكارة، انصرف الجميع وبقيت مع عروسي، لكم هي إنسانة جميلة ومحترمة، حتى أنها خجلت من أن تخلع ملابسها أمامي، هاجت غرائزي وأنا أتملكها وقبل أن أهم بالانقضاض عليها حدثت المفاجأة. فعضوي الذكري ينتفخ ثم ما يلبث أن ينكمش، أعاود المحاولة والمرة تلو الأخرى والحالة كما هي، مرت الليلة وأتت أمي وقالت هذا شيء عادي يحدث مع العرسان بالتأكيد التوتر والقلق الذي انتابك أحدث ذلك، أعطاني أخي حبة فياجرا وقال هذا النوع من الفياجرا قوي وجامد وكفيل بأن ينهي عقبتي، مر أسبوع والحالة كما هي وأنا كما أنا، في الخفاء أحضرت أمي شيخًا قرأ عليّ القرآن ثم ملأ فاهه بأكمله بالماء وقذفه بقوة في وجهي حتى يطرد الأرواح الشريرة، كل هذا ولم يحدث أي شيء وبعد مرور شهر أخذني والدي إلى مركز أمراض الذكورة، انفرد بي الطبيب وانهمر عليّ بسيل من الأسئلة طالباً مني الأمانة في الإجابة، بعدها استشف حالتي وزيادة التأكيد أعطاني حقنة في عضوي الذكري ثم تركني نصف

ساعة، تحسر الطبيب عليّ من ذلك فأنا صغير حتى يحدث لي ذلك، أنا مصاب بالتهريب الوريدي، من فرط ممارستي العادة السرية أحدثت ثقبا بالوريد فالدم يتدفق في الوريد ولكن الثقب يرجعه ثانية لأن الانقباض ليس على ما يرام، قال لي الطبيب بأن براءتي كانت توهمني بأن الانتفاخ هو الانتصاب، أمسك الطبيب من على مكتبه قلم كوركتر وقال حالة الجماع تشبه ذلك، قلم صلب ومنتصب لا ينثني ثمة انثناء يلج داخل مكحلة، كور أصبعيه السبابة والإبهام على شكل فتحة المكحلة، وراح يدخل القلم ويخرجه قابضاً عليه حتى أحدث صوت احتكاك فانتثرت قطرات من الحبر الأبيض على المكتب.

ارتشف عدنان بعض الرشفات من عصير البرتقال وعاود يحكي قائلاً:-

- نظر إليّ الطبيب بشفقة وقال أنت تحتاج إلى تركيب جهاز تعويضي عبارة عن دعامة أخرجها من درج مكتبه تزرع داخل النسيج الأسفنجي للعضو الذكري. هالني ما سمعت من الطبيب، صعقت مما أنا فيه ورحت أكرر بصوت خافت، جهاز تعويضي... جهاز تعويضي نشطت في خيالي صور لأشخاص معاقين واقفين على أطراف صناعية، أأنا عاجز جنسياً!؟ هذا آخر ما كنت أتوقع في حياتي، خفف الطبيب من هول الصدمة قائلاً بأن معظم الناس يعيشون على الفياجرا ذات المواد الكيماوية المضرة بالصحة وأن هناك أصحاء يجرون تلك العملية لزيادة قدرتهم الجنسية

وهـو مـن فـترة قريبـة أجـرى تلـك العمليـة لمليارديـر شـهير تأسـف لعـدم ذكـر أسـمه أمانـة منـه لسريـة خصوصيـة حـالات مرضـاه لزيـادة الشـهوة والاسـتمتاع، قـال لي والـدي بـأن الـداء دائمـاً مُـر وعـلى المـرء مضطـراً أن يتجرعـه، وزاد الطبيـب طمأنتـي قائـلا بـأن نسـبة نجـاح العمليـة تفـوق الـ ٩٠٪.

وبالفعـل أجريـت العمليـة في مركـز الطبيـب المشـهور بالقاهـرة وبـدون مـا يشـعر أحـد بذلـك، فـترة النقاهـة كانـت شـهرا قضيتـه بشـاليه والـدي بالسـاحل الشـمالي، لكـم كنـت أشـعر بـالأسى وأنـا أتذكـر انفـراج فخـذي وأنـا أمـشي في الشـاليه، ولكـم كنـت أشـعر بـالألم والطبيـب يغـير الشـاش بشـاش جديـد، كنـت أتخيـل النسـوة الـلاتي كنـت أنزعهـن ثيابهـن في ممارسـتي للعـادة القبيحـة، كنـت أتخيلهـن يحطـن بي ويقهقهـن عـليّ ويخرجـن لسـانهن لي ويقلـن باسـتهزاء: ذق إنـك الشـقي اللعـين، بعـد العمليـة كان الانتصـاب قويـا يفـوق عـن مـا هـو طبيعـي حتـى أن الطبيـب كتـب لي عـلى نـوع مـن الجـل يسـاعد عـلى الإيـلاج بـدون مـا يحـدث أي ألم لزوجتـي لحـين مـا تتعـود عـلى حالتـي الجديـدة، حجـز لي والـدي بتركيـا شـهر عسـل جديـدا، مارسـت فيـه الجنـس بشـكل طبيعـي، كنـت أخـذ وقتـا طويـلا حتـى أصـل إلى درجـة الـذروة حتـى إن زوجتـي كانـت تـصرخ تحتـي وتقـول: هـذا شيء فظيـع، أمـارس وأمـارس وأمـارس، ولا ينـزل مَنـيٌ مِنـي.

عـاود عدنـان رشـف البرتقـال إلا أني رأيـت في عينيـه دمعـة تسـيل وتهطـل عـلى ثيابـه واسترسـل يقـول:-

- رحت للطبيب وشكوت له الأمر، طلب مني عمل اشعة صاعدة على مجرى البول لم يتبين منها وجود انسداد يحول من قذف المني، ثم طلب مني عمل أشعة على الأحبال المنوية لم تثبت وجود أي عائق يعوق تدفق المني، ثم طلب مني عمل تحليل بول بعد الجماع اتضح منه أن المني يقذف في الداخل في المثانة، قال لي الطبيب بأنني مصاب بانعدام القذف فالمني يقذف في غير موضعه الطبيعي ويعود للخلف، قال لي طبعاً تريد أن يكون لك أبناء وأرشدني إلى مركز شهير بالمعادي صاحبه أول من أدخل علم أطفال الأنابيب والحقن المجهري في مصر، في المركز أخذوا مني الحيوانات المنوية من البول ولقحوا بها البويضات بعد تنشيطها وبحمد الله رزقني الله بتوأمين جميليت ملآ حياتي بهجة، إلا أنه بقي لي أمل بأن أخرج مني بصورة طبيعية، ومنذ يومين اتصل بي طبيب أمراض الذكورة وقال بأنهم توصلوا لعلاج لحالات انعدام القذف.

(١٩)
(في داخل النفق)

لم يطل غياب ممدوح هذه المرة، شهران ونصف مرت في غمضة عين آثر ممدوح أن يحجز لنفسه في فندق العهد الجديد بكلوت بك، هاتفني وهو يرص ملابسه في الدولاب بأنه يريد مقابلتي على وجه السرعة.

ممدوح هذه المرة يحسد عليها حلاوته فاقت المرة السابقة، لم يسعني حتى أسأله عما حدث له من جديد في هذه المرة في رفح حتى فاض ما بداخله قائلاً:-

- اتصل بي علي أبو العيون وأخبرني بأنهم سيواصلون العمل بالنفق وأنه في هذه المرة سيكون النفر قليلا وأن المعلم متولي رشحني لأكون بجواره في النفق، وفي هذه المرة تعرفت على الفتى الذي كان يداعبني فعرفت بأنه ياسين والفتى الآخر الذي كان قريباً منه وساخراً منه، هو عمار، كان ياسين يفرش حصيرا بلاستيكيا في فترة الراحة لتناول الغذاء واحتساء الشاي، قال لي ياسين بأنه حفظ مصر مدينة مدينة، حيا حيا، شارعا شارعا، من فرط

مشـاهدته للدرامـا المصريـة، عندمـا كان في صغـره يلعـب الكـرة أمـام بيتـه ويخـرج أحـد أنـداده مـن بيتهـم ويصيـح (مـام مـام) أي عـادل إمـام كانـوا يدخلـون بيوتهـم بسرعـة حتـى يشـاهدوا عـادل إمـام في التلفـاز، وفي داخـل النفـق ضحكنـا ولعبنـا، كل مـا تتخيـل فعلنـاه داخل النفـق أقمنـا ملعـب كـرة قـدم، وأحرزنـا أهدافـا وجـرى ياسـين فـارداً يديـه مقلـداً أبـو تريكـة بعـد هدفـه في كأس الأمـم الأفريقيـة مخبئـا رأسـه في قميصـه وعـلى فانلتـه الداخليـة عبـارة (تعاطفـاً مـع غـزة). في داخـل النفـق أقمنـا مسرحـاً غنائيـاً وغنينـا لفريـد الأطـرش (الربيـع)، لعبنـا الاسـتغماية رغـم كوننـا اثنـين والنفـق لا يسـع أحـدا غيرنـا ولا يوجـد بـه مـكان للاختبـاء، كنـا نجلـس معـاً بعـد انتهـاء العمل نتسـامر ونحـكي عـما بداخلنـا قـال ياسـين بأنـه يؤمـن بالحـب بمعنـاه الحقيقـي ولا يتوهـم العيـش فيـه كـما يفعـل شـباب اليـوم، وعندمـا سـألته عـن زميلـه عـمار صارحنـي بالحقيقـة، والـده أحـب السـيدة إلهـام راقصـة الفنـون الشـعبية قبـل أن تصبـح رئيسـة الفرقـة ومديـرة المركـز الثقـافي بغـزة، فوالـده كان مهندسـا بمحطـة الكهربـاء بغـزة والتـي كانـت أول شيء يقصـف إبـان الغـارات الإسرائيليـة، والحـق يقـال كان والـد عـمار شـهماً وشـجاعاً، فهـو دائمـاً يقـف وسـط المحطـة في كنـف هـالات اللهـب. حـدث مـا حـدث مـن الانقسـام فـكان مـن نصيبـه رصاصـة استقرت في قلبـه المولـع عشـقاً للـتراب الفلسـطيني، مـن هـذا اليـوم وعـمار ينـزوي وحيـداً، فعـمار بالنسـبة لياسـين صديـق وفي ومخلـص لم يـر منـه أي شيء ينـم عـن ضيـق مـع أن عمـه قيـادي في حركـة حـماس.

السيدة إلهام الشواف والدة عمار تبنت ياسين عندما استشفت موهبته في الرسم، أقامت له معرضاً لرسوماته بمدخل المركز الثقافي ودعت بعض الفنانين من الضفة الغربية للاحتفاء به.

في يوم استدعته السيدة إلهام في المركز الثقافي، رآها واقفةً في وسط المركز وبجوارها جردل بوية وفرشاة وبخاخ بوية، سألته عن الجرافيتي أجابها ياسين بأنه يسمع ذلك الاسم لأول مرة، عرفته بأنه فن الرسم على الجدران وأنه فن احتجاجي منتشر في بلدان كثيرة، هذا الفن بما له من طبيعة اعتراضية تناسب القضية الفلسطينية، أشارت إلى أحد الجدران بالمركز وقدمت له الفرشاة بخاخ البوية وقالت له: ادهن، قال لها: أدهن ماذا؟ قالت: ما يحلو لك وما تحس به.

ليلة بأكملها لم يذق فيها ياسين النوم وهو منهمك في الرسم، رسم على الجدران صورة تملأ عرض الحائط لمحمد الدرة.

في اليوم التالي شاهدت السيدة إلهام ما دهنه ياسين، شجعته وأثنت على موهبته إلا أنها أبدت بعض الملاحظات وضعها ياسين في اعتباره حتى يتلافاها لاحقا.

(٢٠)

(رفح الفلسطينية)

كان ياسين يلح على ممدوح كل يوم بأن يأتي معه إلى الشطر الآخر من رفح، توجس ممدوح من عرضه إلا أنه لم يجد بداً من أن يلبي رغبته تجاه إلحاحه الشديد.

في نهاية اليوم أوصل ياسين المعلم متولي إلى فتحة النفق ورجع هو متعللاً بأنه نسي إحدى أدوات عدة الشغل، دقات قلبه وهو يسير في النفق تكاد تمزق قفصه الصدري إلا أن ياسين كان يخفف عنه ذلك ببعض النكات والمزحات.

عندما أسدل الليل ستائره على رفح الفلسطينية، هي هي نفس المدينة المصرية، لم يحس ممدوح بأي اختلاف وهو يسلك طرقاتها، سحنات الناس، ولهجاتهم البدوية، ورائحة المأكولات، ولافتات الحوانيت، وواجهات المباني، ومركبات السير، هي هي الموجودة في مصر.

قابله الشيخ راجح والد ياسين ببشاشة في الحال نادى من في البيت بإعداد العشاء فيبدو أن ياسين قد أخبرهم بمجيئه. الصينية

عليها ما طاب ولذ من الأطعمة ما هو مشوي وما هو مقلي بخلاف السلطات.

أحضر ياسين جلبابا ارتداه ممدوح وأحس براحة فيه وقعد بجوار الشيخ راجح، حكى له الشيخ راجح عن ذكرياته الجميلة عندما كان يتبع القطاع إدارياً مصر، عرضوا على عبد الناصر ضم القطاع للسيادة المصرية، أبى عبد الناصر ذلك بحماقة ما بعدها حماقة خوفاً منه من ضياع القضية الفلسطينية، تعجب الشيخ راجح من ذلك فاليوم يتفاوضون على الفتات بعد ضياع الكثير من الفرص.

قدم الأستاذ مصطفى عم ياسين وصافحه ممدوح رابتاً على منكبيه ومثنياً على ما يقوم به هو ورفقاؤه، فبجانب ما يقومون به من مهمة جهادية إلا أنه في ثنايا طياتها تحمل صبغة إنسانية نبيلة، دار الحديث في شتى النواحي وتطرق إلى عدة موضوعات. صب الأستاذ مصطفى غضبه على الفتحاويين واصفاً إياهم بأنهم مجموعة خونة انبطحوا أمام العدو الصهيوني وقبلوا جميع إملاءاته بمهانة ما بعدها مهانة، منهم من فرط في الأراضي الفلسطينية مقابل رنة في شبكة محمول هو شريك فيها، ومنهم من تهاون في الدم الفلسطيني فكان من نصيبه حفنة من الأموال مؤمنة في البنوك اليهودية.

استأذن ياسين عمه مصطفى بأن يذهب ممدوح إلى النوم فتعب نهار اليوم يحل عليه.

ما إن خلد ممدوح إلى النوم حتى أيقظه ياسين وأخبره بأن عمار

خارج المضيفة في انتظاره، اندفع نحوه عمار أول ما رآه قابضاً على معصمه وراجياً اتباعه إلى مسكنه. خجل ممدوح من رفض دعوته وتحامل على نفسه وذهب معه.

كانت السيدة إلهام قد أعدت طبق كسكسي محشو بالزبيب ومخلوط بالزبدة، قدمته إلى ممدوح وجلست بجواره واطمأنت على صحته، أول ما لفت انتباه ياسين في غرفة الصالون المكتبة العملاقة التي تتصدرها. يظهر من أدراج المكتبة كتب عن ميثاق العمل الفلسطيني وكتب أخرى عن حركة فتح وصور لياسر عرفات وخليل الوزيري وكنيته (أبو جهاد) وصلاح خلف وكنيته (أبو إياد) ومصطفى أبو علي.

عرفته السيدة إلهام بأن فتح هو الاسم المقلوب لحركة التحرير الفلسطينية، وقالت له بأنها زارت مصر كثيراً ضمن فرقة الفنون الشعبية بمهرجان الإسماعيلية الدولي للفنون الشعبية، ولما عرفت بأن ممدوح صعيدي الأصل تذكرت في التو مهرجان أسوان الدولي للفنون الشعبية، لا تنسى ما وجدته من حفاوة ومحبة من جمهور المهرجان، فعندما شاهدوا العلم الفلسطيني وهم يطوفون به مضمار الاستاد ما لبثوا أن هبوا بالهتاف (يا فلسطين يا فلسطين إحنا معاكي ليوم الدين)، نادتهم السيدة إلهام بأن يرددوا خلفها (فلسطين أرض عربية) لم تتمالك نفسها من الفرح وهي تسمع دوي هتافات الجمهور (فلسطين أرض عربية)، حتى إنها كانت تجري وتقفز من على مضمار الاستاد متخطية الفرق الأخرى رافعة يدها

بعلامة النصر وصائحة بأعلى صوتها (فلسطين أرض عربية).

جالت مع الفرقة معظم أرجاء العالم تنشد الألم الفلسطيني وتحث ضمير العالم الحر للتعاطف مع قضيتهم، وظهر على وجهها التأثر وهي تقول إن الفرقة معطلة الآن، والمركز الثقافي يخيم على جنباته خيوط العنكبوت حتى الفرقة الموسيقية التي كان ينشد كورالها ويصدح صوتها في كل مناسبة (أحلف بسماها وبترابها) موقوف نشاطها وتم تسريح أعضائها.

الحمساويون أناس ظلاميون أطفأوا أنوار المركز وخربوا أركانه فهم يعتبرون الفن والإبداع نوعا من التعري والفجر والفسوق.

(٢١)

(جرافيتي)

رص ياسين علب البوية واستخرج من حقيبة يده بخاخ البوية وأغطية خاصة بها يتمكن من تحديد مساحة وشكل البقعة للبخاخ، أشار ياسين إلى علب ألوان البوية واستطلع رأي ممدوح في اللون المناسب، اللون الأخضر لون البساطة واللون الأحمر لون الشجاعة والحيوية وهذا اللون الأبيض لون النقاء والوضوح وذاك اللون الكحلي لون العظمة والتمييز واللون الوردي لون البراءة.

وقال ممدوح إن الألوان الزاعقة لا تعبر كما يعتقد الكثيرون عن الهم الفلسطيني، فمن الممكن بمزيج من الألوان الهادئة وبقيمة فنية عالية إيصال معاناة الشعب الفلسطيني بشفافية ووضوح.

انهمك ياسين في الرسم على جانبي النفق حتى أنه انشغل عن ممدوح فكان عندما يكلمه يرد عليه باقتضاب وأحياناً يهز رأسه بإيماءة مجيباً على كلامه، آثر ممدوح أن يبقى بجوار عمار الذي كان بين الحين والآخر ينظر إلى ياسين مبدياً إعجابه ودهشته في آن واحد.

طلى ياسين جوانب النفق برسومات وكتابات وفي أسفلها توقيعه بالأحرف الأولى، لا يقدر ممدوح على وصف ما دهنه ياسين في النفق فصوره عبر هاتفه المحمول، أخرجه من جيبه وعرضه أمامي عن كثب وفتح كارت الذاكرة وقال:-

- ما رأيك؟

حملقت النظر في الهاتف فلم أر شيئاً. أشباح وخيالات لشخوص في النفق فقلت:-

- أنا لا أرى أي شيء الصورة أمامي غير مكتملة، صور باهتة لشخوص يصعب عليّ رؤية ملامحهم.

غضب ممدوح فأخرج كارت الذاكرة من هاتفه وراح ينفخ فيه ويهزه نافضاً التراب من عليه وقال:-

- هذا جزاء شراء الهواتف الصينية رديئة الصنع.

- أعطني كارت الذاكرة وأنا سأدخله بهاتفي.

وبالفعل أدخلت كارت الذاكرة بهاتفي فتراءت لي صور تكاد تكون أكثر وضوحا ولو بقليل عما كانت به في هاتف ممدوح، عاود ممدوح يسألني عن مشاهدتي فقلت له:-

- أنا لم أشاهد شيئا، مشاهدتي غير مكتملة، الصورة مهتزة أمامي.

- هذا النفق يا أيمن، وهذا ياسين وهذا عمار.

- أنا لا أرى أي شيء ما هذا العبث، الشيخ محمد عبد الوهاب متأبط الزعيم عبد الناصر ويرقصان رقصة سولو، الشيخ

محمد عبد الوهاب متعلق على رسغي الزعيم عبد الناصر الذي يجري في النفق حاملا الشيخ الذى يقهقه بأعلى صوته، ما كل هذا الهراء، الشيخ والزعيم يرقصان رقصة ماكارينا في النفق.

دققت النظر أكثر وأكثر في الهاتف لعلي أصل لشيء ولو معقول من المشاهدة فلم يتيسر لي شيء فأردفت أقول:-

- سامحني يا ممدوح مشاهدتي غير مكتملة والصورة غير رائقة.

قدر ممدوح ذلك وقال:-

- لكم كنت أتمنى أن ترى ياسين وعمار.

صمت قليلاً ثم استطرد يقول:-

- ما رأيك لو شاهدتهما على أرض الواقع، فقد طرأت لي فكرة بأن أرد عزومتهما وأدعوهما لزيارة القاهرة. فاتحت ياسين في ذلك فوافق على الفور إلا أن عمار اعتذر لي بلطف، قلت لياسين ما هو أكثر شيء تود رؤيته في مصر، أجابني بأنه يتوق لرؤية ميدان التحرير والتنزه على الكورنيش وتناول ذرة مشوية، وارتياد قارب نيلي.

ضحكت من طرافة الفكرة وقلت له:-

- ما رأيك أنت في أن نأخذه معنا إلى العركي، مر أعوام ونحن غائبون عن العركي، لكم أتوق وأحن لرؤيتها.

استحسن ممدوح ذلك وطلب مني تحديد الميعاد وسيأتي ومعه ياسين.

(٢٢)
(قوات الأمن)

هاتفني الأستاذ عبد العزيز وهو يراني من شرفة غرفته وأنا ألج الفندق، قال بألا أخلع ملابسي وآتيه على الفور، فالأمر لا يحتمل التأخير.

رأيت على وجهه كآبة من الحزن تخفق وتحلق ، قال:-

- علمت ما جرى لسالي؟

لم أمهله حتى يكمل حديثه فاستعجلته الخبر قائلاً:-

- حدثني ما جرى لسالي؟
- سالي الآن طريحة الفراش.

هالني ما رأيت على وجه سالي من سحجات إثر كدمات تكسو ملامحها، وجنتاها الرقيقتان تورمتا إثر انحباس الدم داخلهما، جبينها الناصع البياض مغطى بقطع من الشاش والقطن المقطر عليه الميكروكروم، رباط ضاغط علي مفصل يديها، خياط مغروز على جفنيها.

قالت سالي بصوت مبحوح والدموع شلالات لا تكف عن

الفيضــان:-

- تأثرنـا لمـا حـدث للشـاب الإسـكندراني خالـد سـعيد، كنـت أقعـد أمـام صورتـه متأملـة ملامحـه، هـل هـذه الـبراءة التـي تطـل مـن سـحنته السـمحة تقـترف مـا حيـك لـه مـن تعـاط للمخـدرات؟، هـل ابتسـامته البشوشـة والوديعـة التـي تـشرق مـن فيـه بحـق تـشي بأنـه قـادر عـلى بلـع لفافـة مـن نبـات البانجـو حتـى تنحـشر في حنجرتـه فيفـارق عـلى إثرهـا الحيـاة!؟، أنشـأنا صفحـة خاصـة لـه تخليـداً لذكـراه، وتوضيحـاً لحقيقتـه للعـالم الحـر، ولتفضـح جرائـم النظـام القـذرة في حقـه. أطلقنـا عليهـا (كلنـا خالـد سـعيد)، شيء مذهـل فـاق توقعاتنـا الآلاف والآلاف انضمـوا لنـا مبديـن غضبهـم وانزعاجهـم وشـاركونا الـرأي، الأفـكار الجريئـة بثـت في داخلنـا فرحـة زلزلـت وجداننـا، الـكل قـال بأنـه آن الآوان بـأن يكـون الشـارع لنـا. حددنـا الميعـاد فـكان بعـد صـلاة الظهـر، والمـكان فـكان ميـدان طلعـت حـرب، حملنـا صـور خالـد سـعيد ورفعنـا العلـم المـصري، ولافتـات عـلى ورق مقـوى مدبـوج عليهـا (حـرام كفايـة)، أحطنـا تمثـال الاقتصـادي الوطنـي (طلعـت حـرب) مـن جميـع الجهـات عـلى هيئـة شـكل دائـري، أعطـوني الميكروفـون وحملـوني عـلى الأعنـاق وقالـوا لي اهتفـي ونحـن سـنردد خلفـك، كان المشـهد مرعبـا ومفرحـا في آن واحـد، الهتافـات خرجـت منـي بتلقائيـة جميلـة بـدون مـا أدري (يـا حريـة فينـك فينـك أمـن الدولـة بينـا وبينـك)، (ارحـل ارحـل يـا خسـيس يالـلي بتحكمنـا بالبوليـس)، (يـالا يـالا يـا بهيـة خلصينـا مـن الحراميـة)، (دول حراميـة

بجـد باعـوا النيـل والهـرم والسـد).

ثم استدركت وأنا أتابعها في شغف:

- ما هـي إلا دقائـق حتـى ظهـرت مصفحـات الشرطـة وعربـات الأمـن المركـزي التـي نـزل منهـا جحافـل الشرطـة وفـرق الكاراتيـه ومـن خلفهـم البلطجيـة الصبيـة المأجوريـن، أحاطونـا مـن جميـع الجوانـب المؤديـة للميـدان وفجـأة زعـق ضابـط شرطـة برتبـة عميـد (اقبضـوا عـلى ولاد الكلـب دول)، ومـا قالهـا إلا وهجمـوا جميعـاً وانهالـوا علينـا بالعـصي والشـوم، هـي ضربـة واحـدة كانت عـلى مؤخـرة رأسي وبعدها لم أحـس بـشيء فقـدت الوعـي ووقعـت عـلى الأرض، وشـعرت بـألم بالغ كان ينتـاب جسـدي مـن شـدة وطء الضربـات الموجعـة التـي تعرضـت لهـا، فوجئـت بنفـسي داخـل مستشـفى قـصر العينـي الجامعـي ورامـي مؤسـس صفحـة (كلنـا خالـد سـعيد) يوقظنـي لتجـرع الـدواء.

قـال الأسـتاذ عبـد العزيـز وأنـا أرى في وجهـه دمعـة هطلـت منـه لم يقـدر عـلى صـد سـيلانها ولا كان بإمكانـه كتمانهـا:-

- كل هـذه الإصابـات مـا هـي إلا وسـام شرف عـلى صـدرك، سـيرى يـا سـالي في غايتـك النبيلـة وإيـاكِ مـن اليـأس. اليـأس داء أصـاب جيلنـا حتـى أصبحنـا مثـل السـلحفاة تمـشي ببـطء وإن أحسسـنا بخطـر نتقوقـع في جحورنـا، بالأمانـة يـا سـالي نحـن أضحينـا أقزامًـا أمامكـم.

ابتسـمت سـالي ابتسـامة رقيقـة أزالـت كآبـة خانقـة في صـدري وقالـت لي بامتنـان:-

- شكراً يا أيمن على مجيئك.

- هـذا حقـك تجاهنـا، فأنـتِ الآن تقلعـين جـذور الظلـم لتغرسي بـدلاً منهـا قيـم الحـق والمنطـق والعـدل.

نظـرت إلينـا سـالي بابتسـامة عريضـة أفرحتنـا كثـيراً وقالـت بلهجـة مفعمـة بـالإصرار:-

- نحن الآن بصدد شيء ندعو الله أن يوفقنا فيه.

آثـر الأسـتاذ عبـد العزيـز بـأن نسـلك كوبـري قـصر النيـل مشـياً عـلى الأقـدام حتـى نخـرج أنفسـنا مـما نحـن فيـه.

قـال لي الأسـتاذ عبـد العزيـز وهـو متكـئ عـلى حافـة الكوبـري الحديـدي ريثـما يسـتريح قليـلاً مـن مشـقة المـشي:-

- لم ترد عليّ يا أيمن.

- في أي شيء.

- أنت نسيت؟!، موضوع سالي.

- سـأكون يـا أسـتاذ عبـد العزيـز صريحـاً معـك، لا يوجـد نصيـب، سـالي مـن أسرة أرسـتقراطية لا تتحمـل حياتنـا الشـاقة في العـركى، بخـلاف عاداتنـا وتقاليدنـا التـي لم تتعـود عليهـا سـالي، مثـلاً ملابسـها المـودرن الفاضحـة لجسـدها سـتثير غضـب أقـاربي منهـا.

- ضايقتني يا أيمن، لماذا تقول هذا؟!.

- أنا متضايق أكثر منك ولكن للضرورة أحكام كما يقولون.

- أنـت لم تكـن صريحـا معـي بحـق، أنـت تحبهـا يـا أيمـن وهـذا يظهـر عـلى وجهـك عندمـا تراهـا، لهفتـك لسـماع أخبارهـا، شـغفك لِرؤيتهـا، بهجتـك وأنـت بجوارهـا، كنـت أسـترق النظـر لـك

وسالي تحدثنا، تأثرك بكلامها أحدث منك بعض التصرفات العفوية واللإرادية مثل اهتزاز فخذك الملاصق لفخذي، وصدور تنهيدات من صدرك، أحدثت في تأثيرا بالغا، تمالك شجاعتك وبادرني بالموافقة والله يقدم ما فيه الخير، ودعك من هذه التفاهات فالقماش لا يفضي احتراماً للأشخاص. الأخلاق هي الفيصل الوحيد في الحكم على الإنسان، سالي لن تمانع في ارتداء قطعة القماش الشهيرة المسماة بالتحجيبة والتي هي علامة الوقار في عصرنا هذا، أنا سأعتبر بأنني لم أسمع منك هذا الكلام، وسأعطيك وقتا آخر للتفكير.

(٢٣)
(القاذف المنوي)

قال لي عدنان مازحاً: سبق وأن قلت لي بأن أمك مصر وعمتك تونس ما رأيك أن أقول لك بأن خالتك فرنسا؟!

خمنت في بادئ الأمر بأن عدنان يود الذهاب إلى دار السينما لمشاهدة فيلم الفنانة عبلة كامل (خالتي فرنسا) إلا أنه أخبرني بأنه بصدد الذهاب إلى فرنسا ويبغي اصطحابي معه.

ما إن علمت بهذا حتى تهدج صوتي ورحت أردد بين نفسي فرنسا.. فرنسا، فرنسا التي ما أسمع اسمها إلا واستحضرت صورة والدي أمامي، اعترتني حالة من القلق والاضطراب، بح صوتي وارتعشت أعصابي وزادت خفقات قلبي.

خفف عدنان عني ذلك ونحن في الطائرة، وقال من يوم معرفته حكاية والدي وهو يبحث عن اسم إسماعيل المُسعد عبد الحق إسماعيل، طلب من أصدقاء له من ذوي المناصب المرموقة بوزارة الخارجية البحث عنه، وبحمد الله توصل إلى معلومات عنه وبفضله تعالى وفق بالعثور عليه، أجهشت بالبكاء من فرحتي

وشكرت عدنان شكراً جزيلا إلا إنه طلب مني التمهل وعدم استباق الأمور وفيما بعد سيخبرني بما حصل مع والدي بفرنسا.

قال عدنان هامساً في أذني بأن طبيب أمراض الذكورة أخبره بأنه تم التوصل لعلاج لحالات انعدام القذف، طبيب فرنسي الجنسية يهودي الديانة يدعى مايكل هيرمان اخترع جهازا، بواسطته يستطيع المريض القذف، طبيب أمراض الذكورة بالقاهرة حجز عند البروفيسور العالمي مايكل هيرمان موعداً للكشف وسدد قيمة الجهاز مقدماً حتى يتيسر لي الحصول عليه قبل أن ينفد من عند البروفيسور.

البروفيسور مايكل هيرمان يملك مركزاً طبياً عالمياً وسط العاصمة الفرنسية باريس، يضم المركز نخبة من العلماء الأفذاذ وعباقرة ونوابغ الأطباء في العالم في تخصص أمراض الذكورة، شدد عليّ عدنان بأن هذا الأمر سري للغاية وزاد من التنبيه عليّ بأن هذا الشأن لا يعرفه أحد سوى الله وأنا.

بخلاف ما كان يحدث في مصر، انتظره في الخارج ويصعد هو إلى الطبيب، رافقته هذه المرة وصعدت معه إلى الطابق الخامس عشر للمركز، قدم موظف الاستقبال استمارة تعارف وطلب من عدنان أن يملأها، دون عدنان اسمه وجنسيته وعمله وعمره وتاريخ زواجه وأجاب عن سؤال إن كان مارس الجنس قبل الزواج أم لا؟ الأمراض المزمنة المصاب بها وهل سبق له أن أجرى عملية جراحية في منطقة الحوض؟

اسـتأذن عدنـان البروفيسـور هيرمـان بـأن أمكـث بجـواره بحجـرة الكشـف، لم يمانـع البروفيسـور ذلـك وقـال بـأن لا حـرج عنـده في هـذا.

قـرأ البروفيسـور اسـتمارة التعـارف ولم يتعجـب بـأن عدنـان لم يسـبق لـه ممارسـة الجنـس قبـل الـزواج فهـو يعـرف العـادات الشرقيـة الأصيلـة، وقـف البروفيسـور وفتـح درجًـا معدنيًـا في مكتبـه، أخـرج مـن الـدرج علبـة بهـا الجهـاز، أشـار إلى عدنـان ثـم قـال: هـذا هـو جهـاز القـاذف المنـوي، عبـارة عـن مسـمار يدهـن بمـادة زلقـة تسـاعده عـلى الإدخـال في فتحـة الـشرج ومنهـا إلى المسـتقيم خلـف البروسـتاتا، يتـم مـن خلالـه عمـل تثبيـط كهربـائي لمـدة تـتراوح مـا بـين خمـس إلى سـبع دقائـق وفي خـلال هـذه الفـترة يتـم زيـادة التحفيـز تدريجيـاً عـبر الأعصـاب المسـئولة عـن القـذف حتـى يتـم القـذف عنـد الرجـال.

توقـف عـن الـكلام عنـد هـذا الحـد وعـاود الجلـوس وسـاد الصمـت دقائـق وعلامـات القلـق تكسـو وجـه عدنـان، الجهـاز ذكـرني بالقلـم الفلوماسـتر ولـه شـاحن يشـبه شـواحن الهواتـف المحمولـة.

قـال البروفيسـور هيرمـان بأنـه سـيجري الآن الجلسـة الأولى للعـلاج والتـي سـيتم فيهـا تجربـة الجهـاز، ثـم سـأل عدنـان بـأن المملكـة العربيـة السـعودية مشـهورة بالإبـل وعليـه الآن أن يريـه كيـف تـبرك الإبـل في المملكـة خالعـاً ملابسـه الخارجيـة والداخليـة.

رفـض عدنـان ذلـك رفضـاً قاطعـاً واعتـذر للبروفيسـور وقـال لـه بأنـه لا يريـد الجهـاز ومسـتعد للتنـازل عـما دفعـه فيـه، هـذا أمـر مهـين لا يقبلـه أي إنسـان عـلى نفسـه، قـال لـه البروفيسـور مهونـاً عليـه بأنـه

في أول الأمر تكمن الصعوبة وبعد ذلك سيعتاد عليه، فتح الطبيب غرفة جانبية وطلب مني إقناع عدنان، بعد محاولات من الشد والجذب والمماطلة من عدنان، قلت لعدنان بأنه لا حياء في العلم وذكرته بالمثل الشعبي الدارج (الخشا عند الرجال يجيب الفقر)، إلا أنه في نهاية الأمر وافق على مضض بيد أنه تذكر خجل زوجته وهي تخلع ملابسها وضيقها وهي تحت جهاز أشعة السونار الرباعي الأبعاد، ومعاناتها وهي تجري عملية الحقن المجهري، من تنشيط للهرمونات وسحب البويضات وتلقيحها بالحيوانات المنوية حتى تصبح أجنة يتراوح عمرها من يومين إلى خمسة ثم تحقن في رحمها. إحساسه بالريبة وهو يشاهد توأمه أمامه والوسواس اللعين يقول له بأنه ربما حدث خطأ ولقحوا بويضات زوجتك بحيوانات منوية لا تخصك وتوأمك هذا لا يمت لك بصلة.

أومأت للبروفيسور هيرمان بموافقة عدنان، ساعدته في خلع ملابسه ثم أقعدته على سرير الكشف بالوضع ساجداً، ضغط الطبيب على زر صغير بالجهاز أحدث ذبذبات من الرنين المنتظم ثم دهن رأس الجهاز بالمادة الزلقة التي تشبه الجيل ثم أدخله برفق في دُبر عدنان. دموع عدنان انحدرت على خده، قال عدنان: أنا أكره ذلك، أشعر بوجع ينتاب مؤخرتي، كف عن هذا، يا له من موقف مهين، يا إلهي ماذا فعلت في دنياي حتى أكون في هذا الموقف الوضيع؟

قال له الطبيب العالمي: تحمل هذا وسوف يتعود عليه جهازك

العصبي.

دقائق مرت على عدنان كالدهر وفجأة تناثرت قطرات السائل المنوي من عضو عدنان التي استقبلها الطبيب فرحاً بها ومحافظاً عليها في علبة صغيرة من البلاستيك وضعها في ثلاجة الحفظ.

تغير وجه عدنان من الضيق إلى البهجة وهو يرى البروفيسور يضع علبة السائل المنوي في ثلاجة الحفظ، ارتدى عدنان ملابسه على وجه السرعة وجلس قبالة البروفيسور الذي هنأه على نجاح التجربة، وقال له سيبقى لنا جلستان. في الجلسة الأولى سنعرف نتيجة تحليل السائل المنوي وفي الجلسة الثانية سنكرر ما فعلناه منذ قليل زيادة فى التأكيد.

(٢٤)
(ساندوني)

أفصح لي عدنان عما توصل إليه من معلومات تخص والدي، ضاق صدر والدي من فرط مطاردة الشرطة الفرنسية له وللمهاجرين غير الشرعيين. أرشده صديقه بوضيف الجزائري الأصل والمتجنس بالفرنسية بطريقة يستطيع من خلالها أن يحوز الإقامة بطريقة قانونية، يتزوج إحدى العاهرات زواجاً ورقياً يسجل بالمحاكم الفرنسية مقابل أن يعطيها مبلغاً آخر كل شهر، أبى والدي ذلك إلا أنه لم يجد بداً، سيما أنه في آخر مرة استطاع بصعوبة بالغة وبشق الأنفس الهرب من الشرطة لدرجة أنهم كانوا على بُعد خطوات من ملاحقته بشوارع ضاحية الشانزلزيه.

وبالفعل رافق صديقه بوضيف إلى ضاحية ساندوني الشهيرة بممارسة البغاء وبيوت الدعارة. هون عليه بوضيف من وضاعة الموقف بأن الكثير من المهاجرين سلكوا نفس المسلك بمن فيهم هو شخصياً.

قابل والدي أكثر من عاهرة منهن من طلبت منه مقابلا ماديا

مرتفعا لا يتناسب مع دخل والدي الضئيل، ومنهن من عرضت عليه بأن هى التى ستعطيه نقودا مقابل أن يصبح قواداً يجلب لها الزبائن، وفي النهاية قابل عاهرة روسية الأصل تدعى أريتا وافقت على ذلك ولم تغال في المقابل المادي وذهبت معه إلى المحكمة لتوثيق عقد الزواج الذي استطاع به أن ينال حق الإقامة، أحس بشعور غريب تجاه تلك العاهرة، يالها من إنسانة نبيلة لم تكن بالمادية التي تقبض بداية كل شهر كما تفعل مثيلاتها متلهفات على النقود، فمن جودها معه كانت تأخذ آخر كل شهر وتترك الشهر التالي له.

مر عام وأتت أريتا ومعها طفل جميل وقالت لأبي: هذا ابنك، أزاحها من أمامه ونهرها وصب عليها اللعنات. من جانبها رفعت العاهرة دعوى قضائية أثبتت من خلالها نسب الطفل له، وفي ليلة وهو مستلق على فراشه داهمت قوات الشرطة مسكنه وجرته إلى قسم البوليس وأجبرته على استلام الطفل.

كان والدي بين أمرين شائكين إما أن يرضى بالأمر الواقع ويحتضن الطفل أو أن يطلقها ويعود إلى مصر، عناده الشديد وخوفه من أن يعود إلى العركى، كما نزح منها فاشلاً في مسعاه جعلته يقبل بالأمر الواقع.

هذا الطفل كان بمثابة طاقة القدر التي أدرت على والدي الكثير والكثير، هذا الطفل ليس ابناً لعاهرة ولا يمت لها بصلة فهو ابن أحد زعماء المافيا بإيطاليا، وكان يتردد عليها كلما أتى فرنسا، وخوفاً

على طفله من القتل على أيدي العصابات الأخرى المتناحرة معه، عرض على العاهرة أن تتبناه وتكتبه على اسم شخص آخر تثق في أخلاقه، ومن جانبه يهبها الغالي والنفيس.

والدي لم ير زعيم المافيا بعينيه قط، وكان كلما أتى زعيم المافيا فرنسا وأراد مشاهدة ابنه تذهب به أريتا لمكان لا يعرفه والدي قط. أموال طائلة حازها والدي جراء ذلك، ومع مرور الأيام اطمأن زعيم المافيا له فكان يجري معه عمليات قذرة من غسيل الأموال والتى كانت تأتى بها أريتا وتعطيها له لتشغيلها والتى لم تستطع السلطات الفرنسية اكتشافها.

وهكذا تضخمت ثروته فغدا يملك مزرعة صغيرة بمرسيليا ومحلا تجاريا بالشانزلزيه مشاركة مع صديقه بوضيف وفندقا بضاحية ساندوني يقيم فيه، ومرت الأيام وأنسته الأعوام كل شيء عن حياته الماضية، تغلغلت فيه الحياة الفرنسية وانغمس فيها فنسي عادات المجتمع الشرقي وأعرافه وتقاليده.

(٢٥)

(الحيوانات المنوية)

اطمأن عدنان وهو يسمع كلام البروفيسور هيرمان بأن نتيجة تحليل السائل المنوي أظهرت أن عدد الحيوانات المنوية يفوق الخمسين مليونا متجاوزة الحد الأدنى بثلاثين مليونا وأن حركتها طبيعية ولا يوجد بها أي تشوهات. فرح عدنان بذلك وقرر تجهيز حقائبه للرحيل إلا أنه قال بأنه على وعده معي وأنه سيأخذني لرؤية والدي.

قال لي عدنان ونحن نلج ضاحية ساندوني بأنه لولا معزتي عنده ما كان له أن يرتاد هذه المنطقة أبداً، رائحة الخمور تفوح من الشرفات التي عليها لافتات تظهر صور العاهرات وأثمانهن. ياله من منظر قبيح عاهرات كشفن صدورهن وأفخاذهن واقفات أمام محلات لممارسة البغاء ويشرن لوالجي الضاحية بالقدوم لهن.

أحس بشيء ثقيل على قدمي وأنا ارتقي درج السلم المؤدي إلى مكتب والدي بفندقه، دقات قلبي واضطراب صدري وقشعريرة جسدي جعلتني أسرح في الأيام الماضية، صورة جدي وتلهفه لرؤيته

وحسرة عمي عمر لفراقه وبكاء عمتي تونس حين تحن لذكراه، دقائق أجلسنا فيها مدير مكتبه في صالون الاستقبال، لفت انتباهي شاب يظهر على ملامحه أنه مصري متنحٍ جانباً ومطرق الرأس ومغتم الوجه، تقربت منه وعرفت بأنه بالفعل مصري هاجر من بلدته وحدث معه مثل ما حدث مع أبي، وأن آخرين دلوه على والدي ليساعده في الحصول على الإقامة مقابل عمولة يتقاضاها مكتب والدي، وأنه ينتظر الآن قدوم العاهرة للاتفاق على المال الذي ستتقاضاه، تعاطف معه والدي وقلل نسبة عمولة السمسرة.

أشار إلينا مدير مكتبه بالدخول. كان والدي يتصفح النت، أول ما رآنا وقف مرحباً بنا ودعانا للجلوس. نادى موظف البوفيه لإحضار لنا ما نطلب فيبدو أن عادات المجتمع الصعيدي الكريمة مازالت متأصلة فيه، ساد الصمت لحظات، تأملت فيها اللافتة الصغيرة التي على مكتبه والمدون فيها بالفرنسية إسماعيل المُسعد عبد الحق، استفسر عن الخدمة المرجوة منه.

عرفه عدنان بنفسه ثم قدمني له قائلاً:-

- هذا ابنك أيمن.

ارتبك والدي من الدهشة أغمض عينيه ثم فركها، وأعاد ما قاله عدنان بصوت متهدج:-

- أيمن، أيمن، أيمن ابني هذا شيء لا يعقل.
- نعم هذا ابنك أيمن، صار رجلا يعتمد عليه.

وقف والدي مفزوعاً. انقض عليّ يتفحص ملامحي، أنامل يديه

المغـروزة في خـدي تركـت بصماتهـا عليـه، وأدمعـت عينـه، احتضننـي بقـوة وراح يـصرخ في حارسـه الشـخصي بإحضـار مـا لـذ وطـاب مـن الأطعمـة.

سـاعة بأكملهـا قضاهـا يسـتمع لي حتـى أنـه لم يقاطعنـي مؤثـراً الإصغـاء التـام. حـزن لمـا سـمع عـما حـدث لجـدي وعمـي وعمتـي وأقـاربي مـن يـوم رحيلـه مـن ضجـر وغضـب تجاهـه، وضـاق صـدره لمـا سـمع نبـأ مـوت صديقـه سـليم، وأذرف الدمـع لمـا نمـا إلى علمـه مـوت ابـن خالـه رشـدي إثـر حـادث سـيارة.

طلـب منـي إعطـاءه رقـم هاتـف عمـي عمـر للاتصـال بـه حـالاً، اعتـذرت لـه عـن هـذا الأمـر، فهـذا لقـاء عابـر وأنـا أفضـل أن لا يتصـل بأحـد.

اختلسـت النظـر إلى رسـغه الأيمـن فرأيـت ثعبانـا موشـوما باللـون الأخـضر وعـلى رسـغه الأيـسر موشـوم كتـاب مفتـوح عـلى صفحتيـه، في صفحـة صـورة للشـيطان وفي الصفحـة المقابلـة لهـا عبـارة (هـذا كتـابي)، أعـاد والـدي طلبـه بإعطائـه رقـم هاتـف عمـي عمـر، وأعـاد وزاد مـن إلحاحـه إلا إنـه لم يجـد بـداً تجـاه رفـضي، أحـس هـو ذلـك وقـال بـألم: هـذا قـدري.

قـال والـدي بحـسرة بأنـه مـن يـوم مـوت عبـد النـاصر لم يطـق العيـش في مـصر، عبـد النـاصر كان حالـة فريـدة مـن العـزة والكرامـة وكاريزمـا مُدهشـة أذهلـت العـالم بأكملـه، مـرت الأعـوام وفي نهايـة المطـاف نتذكـره ونرجـع لـه ونتحـسر عـلى أيامـه ونبـكي لفراقـه.

ظهرت على عدنان علامات الضيق فأومأت لوالدي بالكف عن الإطراء على عبد الناصر.

عزم علينا بأنه يستضيفنا بفندقه بساندوني. اعتذر له عدنان بأنه لم يبق لنا سوى يومين فقط وسنرجع إلى مصر.

أدخل مدير مكتبه الشاب المصري والعاهرة، استأذنا والدي وانتحى بهما جانباً، أقنع العاهرة بتقليل مقابلها المادي وأخذ وعدا من الشاب أمامها بأن لا يؤخر النقود أول كل شهر.

حنق عدنان من ذلك ووقف على فوره منفعلاً وأشار لي بالانصراف، إنه تحمل الكثير والكثير من أجلي إلا أنه لم يتوقع أن يكون شاهداً على عقد مزاولة بغاء، تعجب والدي وهو يشاهد غضب عدنان وإصراره على الانصراف حالاً ووجه كلامه لعدنان:-

- لماذا كل هذا الغضب؟ لك أن تقول لي ما الفرق بين عاهرات ساندوني ونظام الكفالة في المملكة العربية السعودية. الاثنان يقبضان من راغبي العمل النازحين من الدول الأخرى مقابل أن يتركوهم لحالهم بأمان.

ثارت ثورة الغضب من عدنان وقال منفعلاً:-

- أنا لا أرد على السفهاء أمثالك. السعودية رمز العفة والطهارة تشبهها بالعهر الذي تتقاضى مقابلا ماديا جراءه، يا لك من قواد قذر.

- أنا لن أرد عليك احتراماً لموقفك النبيل مع أيمن وإن كنت تريد الانصراف فالباب مفتوح على مصراعيه، ولكن بمفردك

وأيمن سيبقى معي.

شدني عدنان له وسحبني إلى الباب وقال:-

- أنا لن أتركه لك، أيمن أمانة في رقبتي، لن أتركه لك حتى تنسيه دينه ومبادئه وقيمه.

زعق والدي في حارسه الشخصي وأمره بالإمساك بي، نزعني الحارس من عدنان وقال والدي:-

- هذا ابني ولن أتركه لك، هذا من حقي أنا وأنت ليس لك حق فيه.

قبض عدنان على ياقة جاكت والدي حتى خنقه، وانهال عليه باللكمات على رأسه، وانقض الحارس الشخصي على عدنان لاطماً وجهه ووقع الثلاثة على الأرض، صرخت بأعلى صوت طالباً النجدة، سرعان ما أتى أفراد الأمن وموظف الاستقبال وعمال السيرفيس الذين استطاعوا أن ينهوا اشتباكهم.

أثار من الدماء على فم والدي وبعض السحجات والكدمات على وجه عدنان، خيرني عدنان بأن أبقى مع والدي أو أن أعود معه إلى مصر، اقترحت على عدنان حلاً توافقياً بأن أقضي اليومين المتبقيين بساندوني وأعود معه إلى مصر.

يومان قضيتهما في كنف والدي حاول فيهما بشتى الطرق إغرائي بالمال والوعود البراقة ولكن كل هذا لم يحل لي، أحسست بكآبة وضيق فالمال لم يثر في أي شيء يريح بالي.

ونحـن في الطائـرة اعتـذر لي عدنـان عـما حـدث منـه مـع والـدي وقـال إنـه سـيعطيني ثلاثـة أشـهر إجـازة مدفوعـة الأجـر في خلالهـا سـيغرس نطفـة في حياتـه.

(٢٦)
(الرجوع إلى العركى)

بعد شهر من رجوعي إلى القاهرة وأنا مستلق على فراشي رن هاتفي على نغمة رقم ممدوح، فإذا بصوت على نقيض صوته يطلب مني الحضور إلى مستشفى العريش العام على الفور، صعقني ما سمعت فقلت مستفسراً عما جرى إلا أنه لم يجبني بشيء سوى تعال وستعرف كل شيء.

الكثير من أهل العركي المشتغلين برفح متقرفصين، مطرقي الرءوس، كالحي الوجوه أمام المستشفى، وعندما رأوني أحاطوني وقدموا لي واجب العزاء في ممدوح.

ماذا تقولون ممدوح مات، ممدوح مات، أنا لا أصدق ذلك، هول الصدمة أفقدني النطق والتفكير والتركيز حتى غدوت مثل حيوان هائج يركض في البرية، أجري داخل أروقة المستشفى صارخاً من أقصى أعماق نفسي، أنتم كاذبون، ممدوح لم يمت مازال يحيا فينا، إن كنتم صادقين أروني.

البعض هدأني وأجلسني وأحضروا لي عصير ليمون.

قـال لي «عـلي أبـو العيـون» يبـدو أن قـوات الاحتـلال الإسرائيـلي علمـت بالنفـق فقامـت بتدمـيره بأطنـان مـن المتفجـرات، احـترق كل شيء في النفـق فلـم يبـق بـه إلا هيـاكل بشريـة متفحمـة. أنـت الوحيـد الـذي سـوف تتعـرف عـلى ممـدوح وتخبرنـا بـه وبرفـات الفتـى المسـجاة بجـواره.

فتحـوا ثلاجـة المـوتى، هـذا هـو ممـدوح بعينيـه الزرقاويـن ووجنتيـه القمحاويتـين ووجـه متسـق التقسـيمات، رائحتـه مازالـت تطرينـي وصوتـه يشـجيني وأنفاسـه تؤنسـني، هويـت فوقـه منهـاراً في حالـة هيسـتيرية مـن النحيـب الحـار.

سـألوني عـن جثـة الشـاب المسـجى بجـوار ممـدوح، هـو ياسـين، أبى أن يـترك ممـدوح ويحيـا في الحيـاة وآثـر أن يرحـل معـه.

جلسـت بجـوار الجثتـين المكفنتـين والمسـجيتين بسـيارة دفـن المـوتى، كان ممـدوح يعـزم عـلى ياسـين بـأن يـزور مـصر ومنهـا إلى العـركي وهـا هـو الآن سـيزور العـركي ليـواري عليـه الـثرى بداخلهـا، كان يحـكي ممـدوح بـأن ياسـين يتـوق إلى رؤيـة مـصر وهـا هـو الآن روحـه ترفـرف عليهـا، أنـا أشـاهدهما الآن يجريـان أمـام السـيارات بروحيهـما الحلـوة يودعـان محافظـات مـصر بمدنهـا وقراهـا ومعالمهـا وتراثهـا.

الآلاف مـن أهـالي العـركي والقـرى المجـاورة لهـا كانـوا في انتظارنـا، رغـم تأخـر الليـل وبـرودة الجـو لم يتكاسـل أحـد ويتخلـف عـن تقديـم واجـب العـزاء، الكشـافات والكلوبـات المرفوعـة عـلى أيـدي النـاس ولمبـات أعمـدة الإنـارة وأنـوار السـيارات جعلـت العـركي تبـدو

كحديقـة مقـادة في الليـل تنتظـر قـدوم العاشـقين.

عويـل أقـارب ممـدوح ونحيبهـم خلـف السـيارة وبـكاء أمـه المكلومـة وترديدهـم (الـدوام للـه يـا ممـدوح، الـدوام للـه يـا ممـدوح) جعلتنـي ارتمـي عـلى النعـش وهـم يسـحبونه مـن السـيارة، إن كنتـم تريدونـه فخـذوني معـه فـلا طعـم للحيـاة بدونـه، لم أقـدر عـلى مقاومـة النـاس حتـى وقعـت عـلى الأرض.

حلمـت بممـدوح يفتـح كتـاب العلـوم ويقـول بيتنـا أم بيتكـم كنـت أرد عليـه وأقـول بيتكـم فيخـرج الكتـاب عـلى صفحـة بهـا حديقـة مكتظـة بالـورود النـاضرة ثـم يعـاود ويسـألني بيتنـا أم بيتكـم وأقـول لـه بيتنـا فيخـرج الكتـاب مفتوحـا عـلى نفـس الصفحـة، هـذا البيـت بيتنـا جميعـاً في الجنـة تعـال تعـال معـي يـا أيمـن هيـا تعـال، يمـد ممـدوح يـده ليصحبنـي إلى البيـت الـذي تكتنفـه حديقـة رائعـة، كلـما أهـم برفـع رجـلي وتحريـك قدمـي أحـس بـشيء زلـق يجذبهـا إلى تحـت، يعـاود ممـدوح ويلـح عـليّ بمصاحبتـه إلى بيتـه بالجنـة وأنـا أعـاود المحاولـة للإلحـاق بـه وأخفـق ويكـرر وأخفـق، ينظـر إليّ ممـدوح متحـسراً ويذهـب وحـده إلى بيتـه بالجنـة.

صحـوت مـن حلمـي عـلى صـوت جـدي وهـو يقـول لي مقبـلاً يـده عـلى وجهيهـا: هكـذا الدنيـا يـا أيمـن.

(٢٧)
(ميدان التحرير)

لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. الحرية تنتزع انتزاعاً من أيدي غاصبيها .

هكذا قالت سالي بأن هناك دعوة للنزول إلى الشوارع والميادين عقب صلاة الجمعة، الكل سيزحف صوب ميدان التحرير.

لم أصدق نفسي وأنا أرى الطوفان البشري يزأر في شكل أسراب وأفواج وجماعات نحو ميدان التحرير، حناجرهم تزأر (الشعب يريد إسقاط النظام، عيش حرية كرامة اجتماعية)، كنا نشير للنوافذ والشرفات (يا أهالينا انضموا لينا)، كنت بجوار الأستاذ عبد العزيز الذي أمسك يدي وقدمها لسالي، ابتسمت سالي بعدما رأت ابتسامتي تملأ وجهي معلنة تقديم يدي لها، أمسكت سالي يدي واحتضننا الأستاذ عبد العزيز برفق مقبلاً جبين سالي.

في أول كمين كان فيه ضابط صغير ورهط من الجنود تركونا نمُر بدون أي مقاومة، أما في الكمين الثاني دهشوا لما رأوا كثرة العدد وتركونا نشدوا بحلمنا، وفي الكمين الثالث الذي كان على مشارف

ميدان التحرير والذي فيه أمطرونا بالقنابل المسيلة للدموع التي لم تزدنا إلا مقاومة وإصرارا على دخول الميدان.

ونحن في الميدان لفت نظري لافتة صغيرة مرسوم عليها جرافيتي لصورتي ممدوح وياسين، جريت نحو الجرافيتي، اللافتة تظهر تارة وتختفي تارة أخرى، أجري صوبها، مرة أراها ناحية الغرب من الميدان والمرة الأخرى في شمال الميدان وغالباً ما أراها في قلب الميدان، أخيراً وصلت إلى اللافتة التي كان يرفعها شاب متشح بالوشاح الفلسطيني، احتضنته وقبلته بقوة ورحت أرحب به، ممتناً شاكراً إياه على قدومه مصر قائلاً:-

- مرحباً بك يا عمار في مصر.
- أنا لست عمار، أنا ياسين.

أدهشني ما سمعت فقلت بتعجب:-

- ياسين، من الشاب الذي استشهد بجوار ممدوح؟!.
- عمار هو الذي استشهد مع ممدوح، عمار وممدوح سدوا النفق بظهورهم وقذفوني خارج النفق، من شدة وطأة الدانات لم يستطيعوا الخروج من النفق وانهالت الرمال عليهم.

أشار ياسين إلى اللافتة المرسوم عليها ممدوح وعمار وتحتهما عبارة (ممدوح وعمار، شهداء الاستعمار)، ثم قال لي: رءوس الأشهاد أخفت أسماءهم إلا أنهم لم يستطيعوا إخفاء صورهم التي تزهو في الميدان. هذا الجرافيتي دهنت به قطاع غزة بأكمله، لم أبال بضيق الناس، فتحت المركز الثقافي، وفتحت غرفة صغيرة كان يعشعش

فيها العنكبوت وكانت مخزناً لملابس فرقة الفنون الشعبية، مكثت بها وتركت منزل والدي. السيدة إلهام لم تصدق خبر موت عمار وأمسكت بي وجرتني خلفها وهي تقول: (كما قتلتم أبوه قتلتموه) وذهبت إلى فتحة النفق وخرت على الأرض باكية ترمي الرمال فوق وجهها حزناً على فراقه، خف عقل السيدة إلهام حتى إنهم رأوها تخرج في الليل مرتدية زي فرقة الفنون الشعبية وتجري في الشارع وتصرخ بأعلى صوتها (فلسطين أرض عربية)، أتى أقاربها من الضفة، بكوا عليها وأخذوها معهم.

وسألته كيف أتيت إلى هنا، رد عليا قائلاً:

- أول ما سمعت عن الثورة المصرية قررت الذهاب إلى مصر، الشباب تسلل عبر الأنفاق إلا أنني أبيت ذلك، فمن اليوم لن أدخل أى نفق آخر، سبحت في البحر متحدياً الأمواج العالية والعاتية حتى تمكنت من الرسو قبالة الشواطئ المصرية.

أخرج ياسين هاتفه ليريني ماذا كان يدهن في النفق. المشاهد التى تعذر عليّ رؤيتها في هاتف ممدوح. رأيت عمار واقفاً وخلفه صورة للزعيم عبد الناصر وياسر عرفات وفي الجانب المقابل له من النفق ياسين واقفاً وفي خلفيته صورة للشيخ محمد عبد الوهاب والشيخ أحمد ياسين، عمار وياسين ينظران إلى بعضهما البعض ببراءة ما بعدها براءة مبديان دهشتهما مما هما فيه.

تمت



تعلقت بسالي فما من مرة قابلتها إلا وأحسست بشيء جديد يطرأ منها يبهجني، اصطحبتني سالي في كافيه وسط البلد غالبية رواده من الشباب، كنا في بادئ الأمر ثلاثة ما لبث أن انضم إلينا الكثيرون. الكل تسابق بالكلام عن الوطن وما يئن به، هموم الناس شغلهم الشاغل والحرية هي مناط أحلامهم، أدهشني أبلغ دهشة وأنا أرى خصلات شعرهم تتدلى على مناكبهم وبناطيلهم المتدلية تظهر حافة ملابسهم الداخلية، سلاسل في أعناقهم وإنسيالات تعلو مقابض أيديهم، هل حقاً هؤلاء قادرون على أن يحدثوا شيئاً من التغيير.

بدأت سالي الكلام بتعريفهم بي واستأذنتهم بالموافقة على أن أكون عضواً في جروبهم على الفيس بوك، وراحت تدلي بدلوها بأن الحديث السائد على الساحة الآن هو الانتخابات الأمريكية وما أظهرته نتيجة الاستطلاعات، إنها لنقطة فاصلة في تاريخ البشرية إنسان من جذور أفريقية كان أجداده يساقون قسراً إلى غياهب العبودية هو الآن على أعتاب البيت الأبيض.



978-977-6402-71-3